مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

تلاحم البناء اللغوي في سورة الكهف

جوهر محمد داوود
باحث إماراتي

2025

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 2025-03-27

جميع الحقوق محفوظة © 2025

تلاحم البناء اللغوي في سورة الكهف[1]

1- البحث مقتطف من كتاب «نظم القرآن» الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلاحدود عام 2022

تقديم:

إنَّ تلاحم البناء اللغوي في سورة الكهف يظهر في كل قطاعات السورة، ويتمثل في أنواع التلاحم الأربعة التي ضربنا عليها أمثلة كثيرة في الفصول السابقة من هذا الكتاب. فالنوع الأول هو الكلمة الفريدة لا تتكرر إلا في سورة واحدة، والنوع الثاني هو التركيب اللغوي الفريد لا يتكرر إلا في سورة واحدة، والنوع الثالث هو الاقتباس، اقتباس كلمات من نصٍّ سابقٍ لإنشاء نصٍّ لاحق، والنوع الرابع هو الكلمة أو العبارة تكون أكثر شيوعًا في سورةٍ مَّا أكثر من غيرها من السور. ولما كانت السورة ذات طابع قصصي، فإن الحوار فيها أداة أساسية للسرد وتحريك الأحداث. وسنرى أثناء الحوار كيف يتبادل أبطال القصص الأربع كلماتهم وعباراتهم كأنهم عاشوا في زمان واحد، ومكان واحد، على ما بينهم من فروق كبيرة في الأزمنة والأمكنة، والأحداث التي تجري في قصصهم. فإلى الأمثلة:

المثال الأول: {آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً...}

قال تعالى: ﴿**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ [الكهف: 10]. وقال تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: 65]. نحن هنا أمام آيتين؛ الأولى منهما وردت في قصة أصحاب الكهف، والثانية في قصة موسى والعبد الصالح، وتشتركان في ثلاث كلمات لا تجتمع إلا فيهما في القرآن كله، وهي «آتى»، و «مِنْ لَدُنْ»، و«رحمة». وأهم هذه الكلمات الثلاث وأندرها في الاستعمال القرآني هي عبارة «مِنْ لَدُنْ» التي لا تقع في القرآن إلا ثماني عشرة مرة.[1] وهذه العبارة على ندرتها تتكرر أربع مرات في كلٍّ من سورة الكهف،[2] وسورة النساء،[3] وهذا أعلى نسبة وقوع لها في سورة واحدة، إلا أن لوقوعها في الكهف خاصيةً لغويةً ليست في النساء، وهي اجتماعها بالكلمات الثلاث التي ذكرناها. إن عبارة «مِنْ لَدُنْ» من ألفاظ الفخامة، وتأتي في جميع مواقعها في القرآن مضافةً إلى ذات الله سبحانه بصيغة ﴿**مِن لَّدُنْهُ**﴾ أو ﴿**مِن لَّدُنكَ**﴾ أو ﴿**مِن لَّدُنَّا**﴾، إلا في موضعٍ واحدٍ، فإنها تأتي مضافةً إلى موسى في قوله تعالى: ﴿**قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا**﴾ [الكهف: 76].

إذا تأملنا الآية الأولى [الكهف: 10]، وجدنا أن عبارة ﴿**رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ هي أول كلام نطق به الفتية في القصة. ولاختيار كلمات هذه العبارة أهمية بالغة في بناء السورة والربط بين موضوعاتها المختلفة، وخاصة في القصص الرئيسة الثلاث، كما سنرى في سياق هذا التحليل. فكل كلمة من هذه الكلمات يعاد استعمالها في مواضع أخرى في السورة، مما يدل على التفاعل والتجاوب، والأخذ والعطاء بين الأصوات السردية المختلفة فيها. فقد أخذ الفتية عبارة ﴿**مِن لَّدُنكَ**﴾ من صدر السورة، من قوله

---

1 [آل عمران: 8، 38]، [النساء: 40، 67، 75]، [الإسراء: 80]، [الكهف: 2، 10، 65، 76]، [مريم: 5، 13]، [طه: 99]، [الأنبياء: 17]، [النمل: 6]، [القصص: 57].

2 [الكهف: 2، 10، 65، 76].

3 [النساء: 40، 67، 75].

تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: 2]. فهم يخافون بأس الله الشديد الذي حذرت منه الآية، ولذلك يفرون بدينهم إلى الله، ويسألونه أن يشملهم برحمته، وييسر لهم أمرهم فيما هم مقبلون عليه من اعتزال قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة. وبهذا ترتبط مقدمة السورة بقصة الفتية في معناها وفي مبناها، كما ترتبط قصة الفتية بمصدرها الرباني.

وإذا تأملنا الآية الثانية: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، وجدناها تقتبس بعضًا من كلماتها من آيات سابقة. فهي أولًا تقتبس عبارة ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ من أول آية في السورة، من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1]، كأنما هذا الاقتباس إشارة إلى أن الله الذي أضاف النبي ﷺ إلى نفسه في أول السورة، هو نفسه الذي يضيف هذا العبد من عباده إلى نفسه في قصة موسى، وهي ثانيًا تقتبس من قصة الفتية ثلاثَ كلماتٍ هُنَّ: ﴿آتَيْنَاهُ﴾، و ﴿رَحْمَةً﴾، و ﴿مِن لَّدُنَّا﴾. وهذه الكلمات الثلاث لا تجتمع في القرآن كله في آية واحدة إلا في هاتين الآيتين، كما أسلفنا؛ وذلك على الرغم من أنَّ كلمة «آتى» بهذه الصيغة الرباعية المتعدية إلى مفعولَيْن تتكرر مائتين وإحدى وسبعين مرة، وكلمة «رحمة» مائةً وأربعَ عشرةَ مرة، وعبارة «من لَدُنْ» ثمانيَ عشرة مرة، مما يثبت بصورة قاطعة أن هاتين الآيتين مصممتان لتكونا في سورة واحدة على بُعد المسافة بينهما، وعلى اختلاف موضوعهما.

ومما يؤكد وجود القصد والتصميم من وراء اختيار هذه الكلمات أن هناك عبارة أخرى في سورة آل عمران تكاد تتطابق مع عبارة ﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10]، ولكنها تختلف عنها في بعض ألفاظها اختلافًا يدل على اختيارٍ ربّانيٍّ محكم. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]. في هذه الآية نجد ذات العبارة التي في الكهف، إلا أن هذه تقول: ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ بدلًا من ﴿آتِنَا﴾. والسبب في ذلك أن سورة الكهف تخلو من الفعل «وهَبَ» خلوًّا تامًّا، فلذلك جيء فيها بالفعل «آتى» مع عبارة «من لَدُنْ»، بينما سورة آل عمران يقع فيها الفعل «وَهَبَ» مرتين مرتبطًا بعبارة «من لَدُنْ». قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]. ولم تأت آية آل عمران الأولى [آل عمران: 8] إلا تمهيدًا لهذه الثانية. ويُلحظ التفرد في آيتي آل عمران؛ لأن كلًّا منهما تُختَمُ بتركيب يبدأ بعبارة ﴿إِنَّكَ﴾ ولا يقع هذا التركيب في كل الآيات التي تشتمل على عبارة «من لَدُنْ» في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين. كما تُختم كلٌّ منهما بما يناسب مضمونها: تُختم الأولى بقوله تعالى: ﴿الْوَهَّابُ﴾، والثانية بقوله: ﴿الدُّعَاءِ﴾ لما سبق فيهما من ذِكْرٍ لفِعْلِ هاتين الكلمتين، وهو ما يسميه البلاغيون رد الأعجاز على الصدور.[4] بمثل هذه الدقة تُختار الكلمات والتراكيب في كل سورة، فلا ينوب الفعل «وَهَبَ» عن الفعل «آتى» وإن كانا مترادفين في المعنى.[5]

---

4 نحن نستعمل هنا مصطلح «ردّ العجُز على الصدر» لشيوعه بين الناس، لا لأننا نوافق على عرض القرآن على قوالب بلاغية وضعها المتأخرون، وفهمه وفق تلك القوالب الجامدة التي تحجب القرآن عن الناس أكثر مما تيسّر فهمه.

5 لا ينكر الترادف في القرآن ولا في اللغة إلا من يجهل طبيعة عمل اللغة، وإلا من يتوهم أن الترادف يعني التطابق الكامل في المدلول. فهو حقيقة قرآنية ولغوية لا سبيل إلى إنكارها.

إنّ الهدف من هذه الدقة في اختيار الكلمات والتراكيب هو تحقيق التلاحم اللغوي بين مقاطع السورة الواحدة، وإبراز أنها وحدة نصية محكمة في بنائها اللغوي وتماسكها المعنوي. وإذا نظرنا إلى آيتي الكهف مرة أخرى، وهما قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]. وقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، وجدناهما متلاحمتين في الغرض تلاحمهما في اللغة. إن الله الذي توجه إليه الفتية بدعائهم في الآية الأولى، وآتاهم رحمةً من لَدُنْهُ، وهيَّأ لهم من أمرهم رَشَدًا، هو نفسه – تبارك اسمه – الذي آتى ذلك العبد الصالح رحمةً من عنده وعلَّمَهُ من لَدُنْهُ علمًا. إنه مصدر واحد لا يتعدد. ونلاحظ في الآيتين تنويعًا في التعبير. ففي الأولى قال: ﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، وفي الثانية قال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، ولم يقل «آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِن لَدُنَّا» كما هو متوقع لأنه احتفظ بعبارة ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ ليختم بها الآية بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. ذلك لأن عبارة ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ مرادفة لعبارة ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، وهي من ألفاظ الفخامة في القرآن، وترد فيه سبع مرات،[6] ولا تستعمل إلا في حق الله سبحانه. وهذا دليل آخر على أن هذه القصص التي في سورة الكهف من صميم القرآن، ومن نسيجه المتفرد، ولا شأن للأساطير بها كما يقول المستشرقون، وهم يمكرون بالقرآن.

* * *

المثال الثاني: {صَعِيدًا جُرُزًا...}

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 7، 8]. وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: 40]. يقع هذا النصان في موقعين متباعدَيْن، وفي سياقَيْن مختلفين. والقراءة المتأملة تكشف لنا أن النص الأول إنما جاء تمهيدًا للنص الثاني. إن أول شيء يقفز إلى الذهن، ويرتسم في الخيال، ونحن نقرأ النص الأول، هو قصة صاحب الجنتين، وما آتاه الله من زينة الحياة الدنيا، من جنة فيها الزروع المخضرة، والثمار اليانعة، والنهر المتفجر الجاري، ثم ما أصابها بعد ذلك من دمار شامل، وهلاك مبير. لكن النظم القرآني لا يكتفي بهذه العلاقة المعنوية التي ندركها بين النصين، وإنما يعطينا - زيادةً على ذلك - برهانًا ماديًّا على اتصالهما وتلاحمهما، فيكرر في النصين كلمة ﴿صَعِيدًا﴾، ثم يختار لها موقعًا بارزًا وهو ختام الآية حتى تشد الانتباه بوقعها في الأذن، ثم يضيف إلى ذلك كله أنه يختار فاصلةً من كلمتين تشتركان في حرف الزاي، وهما قوله تعالى: ﴿جُرُزًا﴾، وقوله: ﴿زَلَقًا﴾، وكلتاهما تعطي معنى الجدب والقحولة والجفاف. وكلمة ﴿صَعِيدًا﴾ نادرة في القرآن لا تقع إلا أربع مرات، مرتين في هذه السورة، ومرتين أُخْرَيَيْن في النساء وفي المائدة. وفي المرتين الأخيرتين تقع في سياق بيان حكم التيمم، وتأتي متبوعة بصفة مختلفة تميزها عن آيتي الكهف، في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 34، المائدة: 6].

---

6 [يونس: 76]، [الكهف: 65]، [الأنبياء: 84]، [القصص: 48]، [غافر: 25]، [الدخان: 5]، [يونس: 35].

ودفعًا لأي خاطر قد يهجس في النفس أن يكون تكرار كلمة «صعيدًا» من قبيل الصدفة أو من قبيل زخرفة القول بكلام قد وقع في فاصلة سابقة، يعطينا السياق القرآني دليلًا آخر على وجود القصد والتصميم من وراء المؤاخاة بين هاتين الآيتين [الكهف: 7، 40]؛ وذلك أنه يكرر في الآيتين عبارة ﴿عَلَيْهَا﴾ التي يعود الضمير فيها على الأرض في الآية الأولى، وعلى الجنة في الآية الثانية. فقد ذكر الله في الآية الأولى أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الناس أيهم أحسن عملًا، ووعد أنه يُبيد ما عليها، ولكن لم يُفَصِّلْ كيف تكون هذه الإبادة. وفي الآية الثانية جاء تفصيل هذا الوعد في قصة صاحب الجنتين الذي ابتلاه الله بما جعل له من تَيْنِكَ الجنتين، فلم ينجح في الابتلاء، فأباد الله جنته، وتحقق وعد الله الذي ذكرته الآية السابعة في الآية الأربعين. ولا تُذْكر عبارة ﴿عَلَيْهَا﴾ في الآيتين الأُخْرَيَيْنِ اللَّتَيْنِ ترد فيهما كلمة ﴿صَعِيدًا﴾. بمثل هذا التنسيق العجيب في التلاحم اللغوي والتلاقي المعنوي تتصل مقدمة السورة بأجزائها الأخرى.[7] ومن دقائق التنسيق في التعبير القرآني في هذا السياق، أنه قال في بداية قصة الجنتين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32]، ولم يقُل «آتَيْنَا أَحَدَهُمَا جَنَّتَيْنِ» لأنه قال في آية سابقة جاءت في صدر السورة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]، فاستعمل ﴿جَعَلْنَا﴾ في هذه الآية ليشير إلى أنها جاءت تمهيدًا لقصة الجنتين. ولو قال: «آتَيْنَا أَحَدَهُمَا جَنَّتَيْنِ» لما وُجد هذا الربط اللفظي الخفي العجيب.

* * *

المثال الثالث: {إِذْ أَوَى...}

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]. وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين وفي قصتين مختلفتين. وقد مرت بنا الأولى منهما من قبل وقلنا هناك إن كل كلمة من كلماتها يعاد استخدامها في موضوعات أخرى في السورة، وناقشنا كيف وقعت عبارة «مِن لَدُنْ» مرتين بصورة متفردة. وهنا يعاد استعمال عبارة «إِذْ أَوَى» بطريقة متفردة. إن الجذر «أوي» يقع في القرآن ستًّا وثلاثين مرة بصيغه المختلفة: فبصيغة الفعل الثلاثي «أَوَى» يتكرر خمس مرات، وبصيغة الفعل الرباعي «آوَى» تسع مرات، وبصيغة اسم المكان «مَأْوَى» اثنتين وعشرين مرة. غير أن عبارة «إِذْ أَوَى» تنفرد بوقوعها في سورة الكهف بسمتين لا تظهران في جميع مواقع مادة الكلمة في القرآن: الأولى أن هذا الفعل لا يقع ماضيًا من جذره الثلاثي المجرد إلا في هاتين الآيتين من سورة الكهف. ولكنه يقع ماضيًا من جذره الرباعي في أكثر مواقعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 69]. والثانية أنه لا يقع مسبوقًا بكلمة «إِذْ» في صيغته الثلاثية ولا الرباعية إلا في سورة الكهف، مما يجعل تركيب

7 ومع ذلك يقول محمد أركون: «تُستَهلُّ السورة [أي سورة الكهف] بوحدة نصية مؤلفة من 8 آيات، ولكن لا يمكن اعتبارها بمثابة مقدمة. لماذا؟ لأنها تتحدث عن بواعث مختلفة لطالما تكررت في القرآن في مواضع أخرى متعددة. وعلى هذا الصعيد، فإنها تقوّي وحدة النص الكلي للقرآن أكثر مما تتمفصل مع النصّ الجزئي الذي هو سورتنا.» انظر: محمد أركون، **القرآن من التفسير الموروث**، 147. سبق ذكره. إن محمد أركون يردد هنا كعادته كلام المستشرقين دون دراسة فاحصة لهذه السورة ومكوناتها بصفة خاصة، ودون فهم واضح لطبيعة بناء السورة القرآنية بصفة عامة.

«إذْ أَوَى» آصرةً لغويةً تنفرد بها هذه السورة، وتلتحم بها قصة أصحاب الكهف بقصة موسى والعبد الصالح من الناحية اللغوية. أما من الناحية الغرضية، فإن لتكرار هذا التركيب هدفًا عميق المدلول. فالفتية يأْوُون إلى الكهف، وموسى وفتاه يأْوِيَان إلى الصخرة. وبين الكهف والصخرة علاقة مادية لا تخفى. ولكن بينهما كذلك علاقة معنوية: ففي الكهف تقع الخارقة، خارقة نوم الفتية واستيقاظهم. وعند الصخرة يلتقي موسى ﷺ بالرجل الصالح الذي لم يُسَمِّهِ القرآن، بعد نسيان الحوت والعودة إلى تلك النقطة، ومن ثَمَّ تبدأ رحلة الخوارق المتتالية.

وهكذا ترتبط القصتان هذا الارتباط المحكم الوثيق رغم الفرق الواضح بينهما في الزمان والمكان، والأحداث والأشخاص. ومما يزيد هذه العلاقة وضوحًا فاصلة ﴿عَجَبًا﴾ التي خُتمت بها الآية الثانية عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63]. هذه الفاصلة تعيد إلى أذهاننا فاصلة أخرى وقعت في الآية الأولى التي تُفتتح بها قصة أصحاب الكهف، وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9]؛ لأنها فاصلة نادرة في القرآن، لا تقع إلا ثلاث مرات: مرتين في الكهف، وثالثةً في الجن. والفاصلة النادرة يبقى رنينها في الأذن، ومعناها في الذاكرة، ويسهل استدعاؤها عند ذكرها للمرة الثانية، وهي كذلك في هاتين الآيتين بصفة خاصة لأنها تعبر عما بين القصتين من اشتراك في صفة واحدة هي العجب. وإذا تأملنا الآيتين [الكهف: 9، 63] مرة أخرى وجدناهما تشتركان كذلك في مطلعهما كما تشتركان في ختامها. فكلٌّ منهما يبدأ بالاستفهام. فالآية الأولى تبدأ بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ؟﴾، والثانية تبدأ بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ؟﴾. إن المقصود من الاستفهام في الموضعين هو لفت نظر المخاطب إلى شيء عجيب، والمخاطب في الموضعين نبي. وهذا الذي يميز هاتين الآيتين عن آية الجن التي تنتهي بفاصلة عجبًا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: 1]، والتي ليس فيها استفهام، ولكنْ فيها تلقين وتقرير.

* * *

المثال الرابع: {فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 7]. وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]. مرةً أخرى نجد أنفسنا أمام آيتين إحداهما تقع في قصة أصحاب الكهف، والثانية في قصة موسى والعبد الصالح. إن أول شيء نلاحظه فيهما أن الأولى تنتهي بفاصلة ﴿مُّرْشِدًا﴾، والثانية بفاصلة ﴿رُشْدًا﴾، وكلتا الفاصلتين من جذر واحد، إلا أن الأولى اسم فاعل للفعل الرباعي «أَرْشَدَ»، والثانية اسمٌ للفعل الثلاثي «رَشَدَ». ومادة هذه الكلمة قليلة في القرآن، وفاصلتها أقل. فمادة الكلمة لا تقع في القرآن إلا تسع عشرة مرة بصيغها المختلفة وأكثرها في موقع الفاصلة. وفاصلة ﴿رُشْدًا﴾، و﴿رَشَدًا﴾، و﴿مُرْشِدًا﴾، منكَّرةً ومنصوبةً، لا تقع إلا في سورة الكهف، وفي سورة الجن، لِمَا بين هاتين السورتين من تشابه شديد. فهي تقع في كلٍّ منهما أربع مرات لتحقيق التلاحم بين

النصوص التي تقع فيها. ففي الآيتين اللتين بين أيدينا تقع الفاصلة الأُولى خاتمةً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 7]. هذه الخاتمة تأتي تعقيبًا على الرعاية التي أحاط الله بها الفتية وهم في كهفهم، وقد سخَّر لهم الشمس ألا تمسهم بسوء، وأن تعطيهم مقدار ما ينفعهم من أشعتها، وتصرف عنهم ما يضرهم منها. وفي هذا التعقيب الذي يتخلل القصة - وهذا كثير في القصص القرآني[8] - توكيد أن هذا من آيات الله، وفيه ثناء من الله على الفتية، وشهادة لهم بأنهم من المهتدين الذين أرشدهم الله إلى طريق الهدى. أما غيرهم، وأما من أضل الله، فلن يجد له وليًّا مرشدًا. إنّ سرد القصة هنا يتوقف لإبراز هذا الثناء، وتقرير هذه الحقيقة. وقد يبدو هذا التوقف للوهلة الأُولى جملة معترضة تقطع انسياب القصة، أو يبدو مجرد وقفة وعظية جيء بها لإكمال الجملة.

إلا أنّ التأمل يكشف لنا أن الغرض منه هو التمهيد لِمَا سيقع في السورة من قصة موسى مع العبد الصالح إذْ إننا نجد في تلك القصة صدًى لهذا التعقيب في الآية الثانية يتمثل في ألفاظها وفي مضمونها. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]. نلاحظ في هذه الآية أن موسى يريد أن يتبع الرجل لكي يتعلم منه الرُّشْدَ، لا العِلْمَ. فهو يقول: ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، ولا يقول: «مما عُلِّمْتَ علْمًا»، مع أن هذا الأخير هو المتوقع استنادًا إلى بناء الجملة، كما جاء في الآية التي قبل هذه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، ولم يُقَلْ فيها: «وَعَلَّمْنَاه من لَدُنَّا رُشْدًا»؛ ذلك لأن موسى يريد أن يتعلم منه الرُّشْدَ الذي هو ثمرة العلم، لا العلمَ نفسه، ولأن الله قَيَّضَ له هذا الرجلَ الصالحَ ليكون له ﴿وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 7]. وفوق هذا كله، يسوق لنا النظم القرآني دليلًا لغويًّا آخر على التلاحم المتفرد المقصود بين هاتين الآيتين، وهو أنه يكرر في الآيتين عبارة ﴿لَهُ﴾، والضمير في هذه العبارة يعود في الأولى على الذي يضله الله ولن يجد له وليًّا مرشدًا، وفي الثانية إلى العبد الصالح الذي بعثه الله لموسى وليًّا مرشدًا. وهكذا يتوافق اللفظ والمضمون، وينسجم إيقاع الفاصلة مع الغرض الذي تم التمهيد له في قصة أصحاب الكهف من خلال ذلك التعقيب الذي تخللها والذي كان يبدو – من القراءة السطحية – جملة معترضة تقطع انسياب القصة أو تبدو مجرد وقفة وعظية جيء بها لإكمال الجملة.

* * *

المثال الخامس: {وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا...}

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]. هذه الآية هي الآية الأولى من قصة أصحاب الكهف، وهي أول كلام نطق به الفتية في القصة،

8 إنّ أول من كشف عن هذه القاعدة، قاعدة أن التعقيبات والتوجيهات تتخلل القصص القرآني – فيما وصل إليه بحثي – هو سيد قطب. يقول في هذا: «وكان من أثر خضوع القصة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناياها.... والقارئ لِقصص القرآن يجد هذه التوجيهات منثورة في ثناياها... بكثرة ووفرة، تدل على الغرض الأساسي من سياق القصة، وهو الغرض الديني أولًا وقبل جميع الأغراض.» انظر: سيد قطب، **التصوير الفني**، 168 وما بعدها. سبق ذكره.

وقد التقينا بها من قبل مرتين، ونلتقي بها هنا للمرة الثالثة، لأنها - كما أسلفنا - غنية بالأواصر، ويعاد استعمال كل كلمة فيها في سياق آخر في السورة. في هذه المرة يقول الفتية: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، يسألون الله أن يُيَسِّر لهم أمرهم فيما عزموا عليه من اعتزال قومهم، ويجعل في ذلك لهم الهداية والرشاد. من هذه العبارة التي وردت في أول السورة، يقتبس ذو القرنين الذي تقع قصته في آخر السورة كلمات يضمها إلى كلمات أخرى في آية ترسم منهجه في التعامل مع الصالحين، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: 88]. إنه الملك الصالح يجزي من آمن وعمل صالحًا بالحسنى. ثم إنه لا يكتفي بمكافأة المحسنين بأحسن الجزاء، وإنما يضيف إلى ذلك أمرًا آخرَ وهو قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، أي أنه لا يُعْنتُهم في حُكْمِه، ولا يُصْدِرُ إليهم أمرًا لا يُطيقون تنفيذَه. فهو يتوخَّى اليُسْرَ فيما يَسُنُّ من قوانين وفيما يَفْرِضُ من أحكام.

والآن ننظر إلى العلاقة بين قول الفتية: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، وقول ذي القرنين: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ من الناحية اللغوية وكذلك من الناحية الدلالية. فمن الناحية اللغوية، تشترك هاتان العبارتان في ألفاظ رُكِّبت تركيبًا متفردًا. أولًا: لا تقع عبارة ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ في القرآن كله إلا ثلاث مرات: مرتين في الكهف، وثالثةً في الشورى، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: 25]. فتكرُّرُ هذه العبارة مرتين في الكهف، ومرة واحدة في الشورى مما يدل على أن القصد من تكرارها في الكهف هو الربط بين قصة الفتية وقصة ذي القرنين. ثانيًا: تتفرد عبارة ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ في سورة الكهف عن مثيلتها في الشورى لأنها في قصة الفتية تأتي مسبوقةً بشبه الجملة ﴿لَنَا﴾، والضمير فيها يعود على ﴿الْفِتْيَةَ﴾، وفي قصة ذي القرنين تأتي مسبوقةً بشبه الجملة ﴿لَهُ﴾، والضمير فيها يعود على ﴿مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. أما في الشورى، فالعبارة تأتي مسبوقةً بكلمة مفردة ﴿رُوحًا﴾، لا بعبارة مركَّبة. وقد رأينا في الفقرة السابقة حضور شبه الجملة ﴿لَهُ﴾ كدليلٍ إضافيٍّ على التلاحم بين الآيتين [الكهف: 7، 66]. ثالثًا: يعود الضمير في عبارة ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ في قصة الفتية إلى الفتية أنفسهم، وفي قصة ذي القرنين إلى ذي القرنين نفسه وهو يتكلم بنون العظمة لأنه حاكم، بينما يعود في سورة الشورى إلى ذات الله تبارك اسمه. وهذا فارق دلالي، لا لفظي، ولكنه يبقى فارقًا معتبرًا في تحليل النص. رابعًا: تقع العبارة قُبيل الفاصلة في آيتي الكهف، بينما تقع في أول الآية في الشورى، ولموقع الكلمة في القرآن مدلول. أما من الناحية الدلالية، فإن ذا القرنين يقتبس من الفتية كلماتهم، وهم أبطال صالحون، لأنه في هذه الآية يرسم منهجًا في التعامل مع الصالحين. وسنرى في الفقرة القادمة كيف يقتبس كلماتٍ من بطل ظالم حين يرسم منهجه في التعامل مع الظالمين. بمثل هذا التكامل في اللفظ وفي المعنى تتفرد العبارتان اللتان جَرَتَا على ألسنة الفتية وعلى لسان ذي القرنين لتكونا آصرتين تربطان بين القصتين المتباعدتين في السورة، والمختلفتين في أبطالهما وأحداثهما.

* * *

المثال السادس: {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي...}

قال تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]. إن المتحدث في هذه الآية هو صاحب الجنتين، وقد بلغ به الطغيان مبلغه، فراح ينكر قيام الساعة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. وعلى فرض قيامها، فهو لا شك واجد عند ربه خيراً مما ترك في هذه الحياة الدنيا من الجنة والنعيم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾. وقد سبقت هذه الآيةَ آيةٌ أخرى تسجل عليه ظلمه الذي دفعه إليه الغرور، غرور الوفرة والكثرة من المال والولد، حتى نسي سنة الله في الكون، وحتى استقر في خَلَدِه أن جنته لا تَبِيدُ، ولا تَفْنَى أبدًا: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35]. فمن الآية الأولى [الكهف: 36] يقتبس ذو القرنين كلمات يضمها إلى كلمات أخرى في آية ترسم منهجه في التعامل مع الظالمين، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 87]. إنه الملك العادل لا يتهاون مع الظالمين، وإنما يعاقبهم على ظلمهم حتى يرتدعوا، وحتى لا يركبهم الطغيان كما ركب صاحب الجنتين إذا أفلتوا من العقاب بظلمهم، فيصبح الظلم هو القيمة الشائعة بين الناس. إنه يُثيبُ الصالحين على صلاحهم، ويعاقب الظالمين على ظلمهم، حتى يَشِيعَ العدلُ بين الناس، ويصبح هو القيمةَ العليا التي يسعى إليها كل إنسان. ثم يُرَدُّ الظالم إلى ربه - بعد هذا العقاب في الدنيا - فيعذبه عذابًا نكرًا.

ننظر الآن إلى قيمة هذا الاقتباس من حيث قوته في الربط بين القصتين، قصة صاحب الجنتين وقصة ذي القرنين، كآصرة لغوية مختارة. ففي قصة صاحب الجنتين جاءت عبارة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وفي قصة ذي القرنين، جاءت عبارة: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾. فالعبارتان تشتركان في ثلاث كلمات لا يجتمعْنَ في آية واحدة إلا في هذين الموضعين من سورة الكهف؛ وذلك على الرغم من شيوع هذه الكلمات في القرآن شيوعًا كبيراً. فمادة «ردد» تتردد في القرآن تسعًا وخمسين مرة، وكلمة «إلى» تتردّد - غيرَ متصلةٍ بضمير - أكثر من أربعمائة مرة، ومادة «ربّ» تتردد تسعَمائةٍ وثمانين مرة. إن اجتماع هذه الكلمات الثلاث حصرًا في هاتين الآيتين رغم شيوعهما الكبير إنما يدل بوضوح قاطع على الدقة المعجزة في اختيار كلمات القرآن. والعجيب أنه قد يجتمع الفعل «ردّ»، وحرف الجرّ «إلى»، ولفظ الجلالة «الله» في آية واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 62]، وقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: 30]، ولكن الفعل «رَدَّ» ومعه حرف الجر «إلى» لا يأتيان ألبتة متبوعَيْنِ بلفظ «الرب» إلا في آيتي الكهف.

ومما يزيد هذه الدقة المعجزة في اختيار الألفاظ جلاءً أننا نقرأ في سورة فصِّلتْ قولَه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصِّلتْ: 50]، ونجد فيها ذاتَ الألفاظ التي وجدناها في سورة الكهف. يقول صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾. ويقول المتحدث في آية فصِّلت: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾. ولا فرق بينهما إلا أن الأول قال: ﴿رُّدِدتُّ﴾، والثاني قال: ﴿رُّجِعْتُ﴾. والسر في هذا

الاختلاف أنَّ كلَّ آيةٍ جاءت مسايرةً لمعجم سورتها. فسورة الكهف ترِد فيها مادة «ردد» ثلاث مرات: في قصة الجنتين، وفي قصة موسى، وفي قصة ذي القرنين. وأما مادة «رجع» فلا ترِد فيها مطلقًا، بينما ترِد هذه المادةُ في فصِّلتْ مرتين: في هذه الآية [فصِّلتْ: 50]، وفي آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصِّلتْ: 21]. ومن ثَمَّ لا نستطيع أن نضع ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾، مكان ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أو العكس، لما في ذلك من إخلالٍ بيِّنٍ بالميزان اللغوي الحساس الذي يقوم عليه بناء السورتين. ولو جاز استبدالُ كلمةٍ بأخرى في القرآن، كما تزعم المرويات، لجاز هذا النوع من الاستبدال الذي تترادف فيه الكلمات ترادفًا يؤدي المعنى أداءً كاملًا. ولا بد أن نشير هنا كذلك إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: 64]. لقد قال في هذه الآية: ﴿فَارْتَدَّا﴾، ولم يَقُلْ «فَرَجَعَا» أولًا لأن الفعل «رجع» ليس من معجم سورة الكهف كما علمنا، وثانيًا لأن الفعل «ارتدَّ» مشتق من الجذر «ردَّ» الذي في قصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين. ومع أنَّ الكلمتين مترادفتان، إلا أنّ النظم القرآني لدقته العجيبة، وحساسيته البالغة في اختيار الألفاظ، لم يضع إحداهما مكان الأخرى. بمثل هذا الاختيار المدهش، يحافظ القرآن على تناسق معجم السورة.

وهناك علاقة غرضية بين آيتي الكهف لا تبدو من القراءة العابرة. فصاحب الجنتين يطمع أن يدخل الجنة بعد موته، رغم ما كان منه من الظلم والطغيان، ورغم ما كان منه من الشك في قيام الساعة، وهو إنما يعبر عن طمعه هذا على سبيل الاستهزاء، لا إيمانًا منه بأن الساعةَ قائمةٌ حقًّا. فلنسمع كلماته مرة أخرى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا*وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 35، 36]. ويلتقط سياق السورة هذه الفكرة، فكرةَ شك الظالمين والطاغين في قيام الساعة، ويعيد تسجيلها مرة أخرى لا لتأكيد حقيقة قيام الساعة فحسب، ولكن كذلك لتبديد آمالهم أنهم يدخلون الجنة في الآخرة. ومن ثم، يقتبس ذو القرنين كلمات صاحب الجنتين ليعبر عن هذه الفكرة. ولنسمع كلماته أيضًا مرة أخرى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 87]. نلاحظ أن ذا القرنين يقول: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، وهو يشير بهذا إلى ما جاء في وصف صاحب الجنتين: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، لتأكيد أن الفكرة هي نفسها التي جاءت من قبل. فالظالم يَلْقَى جزاء ظلمه في الحياة الدنيا، سواءً بدعوة الصالحين كما حدث لصاحب الجنتين، أو على يد حاكم عادل كذي القرنين، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾. وسنرى في الفقرة القادمة أن سياق السورة سيكرُّ على هذه الفكرة مرة أخرى في سياق آخر.

* * *

المثال السابع: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ...}

قال تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]. لقد ناقشنا هذه الآية في الفقرة السابقة، ورأينا فيها أن صاحب الجنتين يرتاب في قيام الساعة، ويكاد يجزم أنها لن تقوم، وأنها إن قامت على سبيل الافتراض، فإنه سيجد عند ربه خيرًا من جنته التي تركها في الدنيا. إنَّ لهجة الاستهزاء

والتهكم واضحة في كلامه، وترتسم من خلال كلماته شخصية الإنسان الذي أخذته سكرة الغنى كلَّ مأخذ، فلا يرى في الحياة إلا النعيم الذي يتقلب فيه، ويظن أنَّ ذلك باقٍ له أبد الدهر، وأن الله راضٍ عنه، ولولا رضاه لما أغدق عليه كل هذه النعم. ويبدو أن هذه حالة نفسية تعتري أكثر الناجحين في الحياة الدنيا. ويريد القرآن أن ينقض هذه الفكرة من خلال مشهد من مشاهد القيامة، فيقتبس من كلام صاحب الجنتين كلمتين هما «ظنَّ» و«وجد»، ويدخلهما في آية جديدة. قال تعالى: ﴿**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**﴾ [الكهف: 53]. في هذه الآية، يرى المجرمون النار، وفيهم صاحب الجنتين، وقد قامت الساعة فلا مجال للشك فيها، ويوقنون الآن أنهم داخلوها لا محالة، لا يجدون عنها مصرفًا، أي مكانًا يتحولون إليه عنها. وبهذا تنتقض فكرة أن صاحب المال يبقى خالدًا في الدنيا، وتتبدد آماله الكاذبة في أنه يدخل الجنة بعد الموت، لأن النار في انتظاره هناك، ولا يجد عنها مصرفًا.

ولكن كيف نجزم أنّ هذه الآية تريد نقض هذه الفكرة، وكيف نجزم أنها مرتبطة ارتباطًا حصريًّا بصاحب الجنتين؟ ولماذا لا تكون آيةً عامةً تصور مشهدًا من مشاهد القيامة؟ إن الذي يُعِينُنَا على هذا الجزم هو التناظر اللغوي الحصري الذي نجده بين الآيتين، ذلك التناظر الذي لا نظير له في القرآن. إن مادة «ظن» تتكرر في القرآن باشتقاقاتها المختلفة تسعًا وستين مرة، ومادة «وجد» مائةً وسبعَ مرات. ولكن هاتين الكلمتين لا تجتمعان في آية واحدة في القرآن كله إلا في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**﴾ [الكهف: 36]، وقوله تعالى: ﴿**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**﴾ [الكهف: 53]. إن وقوع هاتين الكلمتين في هاتين الآيتين وقوعًا حصريًّا، رغم وفرتهما وكثرتهما في القرآن، ليدل دلالة قاطعة على أن القصد من هذا الجمع بينهما في هذين الموضعين هو الربط بين الآيتين في اللفظ وفي المدلول. لقد عرفنا الربط بينهما في اللفظ من هذا الوقوع الحصري للفظتين. أما الربط في المدلول فيتمثل في استعمال عبارة ﴿فَظَنُّوا﴾ في سياقٍ يقتضي استعمال «فأيقنوا»؛ وذلك أن المجرمين كانوا يرتابون في قيام الساعة وهم في الحياة الدنيا ارتيابًا فيه استهزاء وتهكم، واليوم وقد قامت الساعة، يقفهم القرآن أمام النار وجهًا لوجه يرونها رأي العين، فإذا هم جريًا على عادتهم في الدنيا يرتابون فيما تراه أعينهم من هول الموقف، وهم موقنون أن ما يرونه حقيقة لا مهرب لهم منها ولا مصرف لهم عنها. فالقرآن يستعمل عبارتهم نفسَها ﴿فَظَنُّوا﴾ التي استعملوها في الدنيا على سبيل الاستهزاء والتهكم وهم في موقف الحصار بالنار ليكون جزاؤهم من جنس ما كانوا يعملون.

لقد جرى معظم المفسرين في تفسير عبارة ﴿فَظَنُّوا﴾ على أنها تعني «فأيقنوا»، لا لأنهم ربطوا بين هاتين الآيتين، ولكن لأن السياق يقتضي هذا الفهم، ولا يستقيم المعنى إلا بهذا التفسير. ولكن من المفسرين من أنكر استعمال هذه الكلمة في هذا السياق في جرأة عجيبة بحجة أن مثل هذا الاستعمال لم يكن مما كان جاريًا في كلام العرب، ولم يشهد له به شعر شاعر!

يقول ابن عطية الأندلسي: ولو قال تعالى بدل «ظَنُّوا»: «أَيْقَنُوا» لكان الكلامُ متَّسقًا على مبالغة فيه، ولكن العبارة بالظن لا تجيء أبدًا في موضع يقينٍ تامٍّ قد ناله الحس، بل أعظمُ درجاتِه أن يجيء في موضع علم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلا فما يقع ويُحَسُّ لا يكاد يوجد في كلام العربِ العبارةُ عنه بالظنّ، وتأمَّلْ هذه الآيةَ، وتأمَّلْ قولَ دُرَيْد: «فقلتُ لَهُمْ ظُنُّوا بألفَيْ مُدَجَّجِ.»[9]

إنّ الإنسان لتستبدّ به الدهشة وهو يقرأ هذا الاستدراك المنكرَ الفجَّ على الله سبحانه في كتابه العزيز، وهذا القطعَ الحاسمَ بأن العبارة بالظن «لا تجيء أبدًا في موضع يقينٍ تامٍّ قد ناله الحس.» إن ابن عطية هنا يقترح على الله أن يستعمل كلمة تجعل القرآن متسقًا. إنّه يقول بعبارة صريحة: «ولو قال تعالى بَدَلَ «ظَنُّوا»: «أَيْقَنُوا» لكان الكلام متسقًا»، أي أن كلام الله غير متسق، والعياذ بالله. ولو أن الله استعمل كلمة ابن عطية بدلًا من كلماته سبحانه - كما يقترح ابنُ عطية - لكان الكلام متسقًا! إن أعجب ما في أمر ابن عطية هذا هو أنه هو نفسه الذي يقول في مقدمة تفسيره تلك الكلمة المشهورة المأثورة عنه حتى يوم الناس هذا، وهي قوله: «وكتاب الله لو نُزِعَتْ منه لفظةٌ ثم أُدير لسانُ العربِ في أن يوجد أحسنُ منها لم يوجد».[10] تناقض عجيب! فَأَيُّ قَوْلَيْهِ أجدرُ بالتصديق؟

ثم يقارن ابنُ عطيةَ كلامَ الله بكلام شاعر، فيفضِّل كلامَ الشاعر عليه. يقول: «وتأمَّلْ هذه الآيةَ، وتأمَّلْ قولَ دُرَيْد: «فقلتُ لَهُمْ ظُنُّوا بألفَيْ مُدَجَّجِ». يبدو أن الشاعر هنا يريد أن يقول: إذا غزاكم أَلْفَا مُدَجَّجٍ، فَظُنُّوا، أي توقَّعُوا أو أيْقِنُوا شرًّا. فهو لا يعيِّن مفعول «ظُنُّوا» في كلامه هذا، وإنما يتركه مبهمًا ربما ليُفهم من السياق. وهذا معنًى وإن صح في هذا السياق لا يمنع وقوع غيره في سياق آخر، ولا يمكن أن يكون هو المعيارَ الذي نحتكم إليه لصحة ما جاء في القرآن.»[11] ولكن مما يؤسف له أن ثقة المفسرين بالشعر أكثر من ثقتهم بالقرآن. فلا يكادون يَقْبَلُون لفظًا أو سبكًا من القرآن لا يعرفونه، إلا إذا شهد له شاهدٌ من الشعر أو قولٌ لأعرابي. ولستُ أولَ من يقول هذا، وإنما قال مثلَ هذا الكلامِ وأشدَّ منهُ وأحدَّ ابنُ حزمٍ الظاهريُّ الأندلسيُّ (ت: 456هـ).

يقول ابن حزم: ولا عَجَبَ أعجبُ ممن وَجَد لامرئ القيس، أو لزهيرٍ أو لجريرٍ أو الحطيئة أو الطرمَّاح أو للشماخ أو لأعرابيٍّ أسديٍّ، أو سلميٍّ، أو تميميٍّ، أو من سائرِ أبناء العرب بوَّالٍ على عَقِبَيْه لفظًا في شِعْرٍ أو نثرٍ جعله [حُجَّةً] في اللغة وقَطَعَ به ولم يعترض فيه. ثم إذا وجد لله – تعالى – خالقِ اللغات وأهلِها كلامًا لم يلتفت إليه ولا جعله حجة، وجعل يَصْرِفُه عن وجهه ويُحَرِّفُه من مواضعه ويتحيل في حالته عما أوقعه الله عليه، وإذا وجد لرسول الله ﷺ كلامًا فعل به مثل ذلك.[12]

---

9 انظر: ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز**، 1198. سبق ذكره.

10 المصدر السابق، 29

11 وقد فات ابنَ عطية وغيرَه من الذين يقدمون كلام الأعراب على كلام الله، أن المعنى إنما يحدده السياق الذي تقع فيه الكلمة. فليس للكلمة المفردة، غير المنتظمة في علاقة تركيبية مع غيرها من العناصر اللغوية، معنى محدد قاطع لا معدى لها عنه إلى غيره.

12 انظر: الإمام أبا محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر، والدكتور عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، 1996)، 3: 231

لقد صدق ابن حزم. فلله شِدَّتُهُ هنا وحِدَّتُه. إنهم يقدِّمون كلامَ أعرابيٍّ بوَّالٍ على عَقِبَيْهِ على كلام الله سبحانه. فالداء إذن قديمٌ مضى عليه أكثر من ألف عام، ولكنه ما زال متمكنًا من كثيرٍ من العقول حتى اليوم، ونحن في القرن الخامس عشر الهجري. وقد أنكر هذه النزعة العجيبة كذلك – بعد ابن حزم – الفخرُ الرازي.[13] هذا ومما ينبغي ذكره بهذه المناسبة أنَّ ابنَ حزم سبق محمد عابد الجابري بنحو ألف عام في التنبيه على مركزية الأعرابي في صناعة اللغة العربية.[14]

المثال الثامن: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا...}

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: 62]. هاتان الآيتان تقعان في موقعين متباعدين وفي قصتين مختلفتين: الأولى في قصة أصحاب الكهف، والثانية في قصة موسى. ومع هذا التباعد والاختلاف، تتلاحم الآيتان بكلمتين لا تجتمعان في القرآن إلا فيهما، وهما كلمة «فتى» وكلمة «آتى». فمادة «فتي» تتكرر في القرآن إحدى وعشرين مرة بصيغها المختلفة، وتأتي مركزة بصفة خاصة في سورة يوسف،[15] حيث ترِد ست مرات، وفي سورة الكهف،[16] حيث ترِد خمس مرات. وغالبًا ما يكون ورودها كآصرة لغوية في السور التي تقع فيها مرتين أو أكثر، كالذي نجده في عبارة ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ التي لا تظهر في القرآن كله إلا في سورة الصافات، رابطةً بين قطاعَيْن في السورة متباعدَيْن [الصافات: 11، 149]. والفعل «آتى» الرباعي يتكرر مائتين وإحدى وسبعين مرة، ولكنه رغم شيوعه هذا الكبير لا يجتمع بكلمة «فتى» في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة الكهف.

لقد التقينا بالآية الأولى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، من قبل ثلاث مرات، ونلتقي بها الآن للمرة الرابعة؛ لأنها – كما أسلفنا – آية مركزية

---

13 يقول الفخرُ الرازي: «إذا جوَّزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول، فلأنْ يجوزَ إثباتها بالقرآن العظيم، كان ذلك أولى... وكثيرًا أرى النحويين يتحيرون في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت على وفقه دليلًا على صحته، فلأنْ يجعلوا ورود القرآن به دليلًا على صحته كان أولى.» انظر: الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، 9: 57، عند تفسير [آل عمران: 156].

14 يقول محمد عابد الجابري: «إنّ جمع اللغة من الأعراب، دون غيرهم، معناه جعْل عالم هذه اللغة محدودًا بحدود عالمِ أولئك الأعراب... [ونتيجة لذلك، فإن] اللغة العربية التي جمعوها من الأعراب جاءت فقيرةً جدًّا بالمقارنة مع النص القرآني... فكانت اللغة العربية، لغة المعاجم والنحو، أقل اتساعًا وأقل مرونة وبالتالي أقل تحضُّرًا منه... ولقد كان طبيعيًّا أن ينعكس هذا على فهم القرآن من طرف العرب أنفسهم.» انظر: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثامنة، 2002)، 87. إن كلام الجابري هذا جيد حالفه فيه الصوابُ إلى حدٍّ بعيد. ولكن الصوابَ يجانبه كل المجانبة في كتاباته عن القرآن، التي تبنى فيها آراء المستشرقين، وقَبِل المرويات الواهية والمدسوسة التي حشا بها المفسرون وأهل الحديث كتبهم بلا نقد ولا تمحيص، وانتهى به ذلك كله إلى الطعن في سلامة القرآن من التغيير والزيادة والنقصان. فهي من أجل ذلك ليست من أفضل مؤلفاته ولا نجد فيها العمق الذي نجده في مؤلفاته الأخرى. يقول الجابري في ختام فصل كتبه بعنوان **الزيادة والنقصان في القرآن**، في كتابه **مدخل إلى القرآن الكريم**: «ومع أن لنا رأيًا خاصًّا في معنى «الآية» في بعض هذه الآيات [يعني آياتٍ ساقها للاستشهاد على حصول التغير في القرآن]، فإن جملتها تؤكد حصول التغير في القرآن وإن ذلك حدث بعلم الله.» انظر: محمد عابد الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء الأول في التعريف بالقرآن** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2006)، 233

15 [يوسف: 30، 36، 41، 43، 46، 62].

16 [الكهف: 10، 13، 22، 60، 62].

غنية بالأواصر يعاد استعمال كل كلمة فيها في موضع آخر في السورة. إن الفتية في هذه الآية يتوجهون إلى ربهم بالدعاء في أول كلام ينطقون به في القصة أن يؤتيهم من لدنه رحمة ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا. من هذه الآية العظيمة، يقتبس النظم القرآني كلمتين، ويدخلهما في آية جديدة، وفي قصة جديدة، ثم يجريهما على لسان موسى ﷺ. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: 62]. وفي هذه الآية يتوجه موسى ﷺ إلى فتاه، وقد نال منهما التعب أثناء السفر والجوع، فيسأله أن يؤتيه غداءهما. فالعلاقة اللفظية الحصرية بين الآيتين تتمثل في ورود كلمتي «فتى» و«آتى» فيهما، كما ذكرنا. أما العلاقة الغرضية فتتمثل في عنصر المفاجأة في المشهدين: فالفتية يسألون ربهم أن يؤتيهم رحمةً من لدنه، ولا يحددون طبيعة هذه الرحمة، فتأتيهم في هيئة رقدة طويلة تمتد تسع سنين وثلاثمائة وهم لا يشعرون، فيفاجَؤون عند استيقاظهم من مُضيِّ كل هذه السنين، كما يفاجأ الناس من حولهم. وكذلك موسى ﷺ يسأل فتاه أن يؤتيهما غداءهما، ولكنه لا يجد ما طلب، وإنما يفاجأ باختفاء الحوت الذي كان ينبغي أن يكون مادة لغدائهما. وكانت مفارقةُ اختفاءِ الحوتِ في البحر هي المفاجأةَ الأولى التي هيَّأَتِ المسرح للمفارقات التي ستتوالى على موسى أثناء رحلته مع العبد الصالح. بمثل هذا التناسق العجيب تتوافق القصتان في بنائهما اللغوي ومرماهما المعنوي.

* * *

المثال التاسع: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم...}

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]. وقال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77]. تعرض هاتان الآيتان مشهدين في قصتين مختلفتين، وهما من الآيات الفريدة التي تتجلى فيها الهندسة الدقيقة لتلاحم البناء اللغوي في السورة القرآنية. إن السبك اللغوي المتفرد المشترك بينهما هو عبارة: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ في الآية الأولى، وعبارة: ﴿لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ﴾ في الآية الثانية. والتفرد في سبك هاتين العبارتين يكمن في حقيقة أن فعل «اتَّخَذَ» الخماسي يتكرر في القرآن بهذه الصيغة الصرفية الخماسية وحدها مائةً وأربعًا وعشرين مرة. وهذا حضور عالٍ جدًّا لهذا الفعل، يرفع احتمال وقوعه في صِيَغٍ تركيبيةٍ كثيرةٍ إلى درجةٍ عالية. وأعلى حضورٍ لهذا الفعل في القرآن يوجد في سورة الكهف إذ يتكرر فيها اثنتي عشرة مرة، تليها سورة الفرقان بتسع مرات، ثم سورة البقرة بسبع مرات. وهذا حضور عالٍ يشهد بكونه من السمات اللغوية البارزة للسورة. أما الذي يجعل هذا الحضور آصرة لغوية بلا نظير تربط بين قصتين مختلفتين فهو أن الفعل «اتَّخذ» لا يأتي مَتْلُوًّا بحرف الجر «على» في القرآن كله، في مواقعه الأربعة والعشرين والمائة، إلا في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77]. وفي هذا تتجلى

الدقة المعجزة! أين هذه القدرة البشرية التي تستطيع أن تفرز هذا التركيب من بين مائة وأربعة وعشرين تركيبًا لهذا الفعل، وتضعه في قصتين مختلفتين في نفس السورة، ثم لا تكرره في أي سورة أخرى في القرآن، حتى لو استعانت بأشد الأجهزة تعقيدًا؟ ثم بعد هذه الدقة المعجزة، أين هذه القدرة البشرية التي تجعل هذا التركيب ملائمًا للآية التي يقع فيها ملاءمة تامة في لفظه وفي مغزاه كأنه لم يكرر في أي موضع آخر؟

إنّ النظر إلى مضمون الآيتين يبين لنا مدى ملاءمة هذا التركيب لمغزى كل آية. ففي الآية الأولى، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ [الكهف: 21]. هذه الآية تعرض مشهدًا للفتية وقد ذاع أمرهم بين الناس، ووقعت العبرة من بعثهم، وهي أن يعلم الناس أنَّ وعد الله حق، وأنَّ الساعة لا ريب فيها. نفهم ذلك من أن أجسادهم لم تَبْلَ ولم تتحلل من طول الرقاد، وأنهم استيقظوا كما ناموا، حتى إن الناس لم ينكروا شيئًا من رسولهم الذي ذهب إلى المدينة ليشتري لهم بعض الطعام إلا العملة القديمة التي كان يحملها معه. بل إن الفتية أنفسهم لم ينكروا من هيئتهم شيئًا حتى ظنوا أنهم لم يلبثوا في كهفهم إلا يومًا أو بعض يوم. ولو كان قد طرأ عليهم شيء من التغيير لما قالوا هذا. كان هذا كله آيةً للمرتابين في أمر البعث وقيام الساعة. ونفهم كذلك من السياق أن الفتية ماتوا من فورهم، بدليل أننا لا نسمع لهم كلامًا بعد هذا المشهد، وبدليل أنَّ الناس بدؤوا يتنازعون في أمرهم، وما سيبقى من آثارهم من بعدهم، وطريقة التعامل مع تلك الآثار. فانقسموا إلى فريقين: ففريق منهم رأى أن يُبنى عليهم بنيان، أيُّ بنيان يحفظ للفتية آثارهم وذكراهم بما ينبغي لهم من اصطفاء الله لهم، فهو أعلم بهم: ﴿**فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ**﴾، ولا يزيدون على ذلك. وفريق آخر منهم، وهم أولو القوة فيهم والنفوذ، رأى أن يُبنى عليهم مسجد، ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾، يكون مكانًا للعبادة، ولا يكون مجرد بنيان، كما اقترح الفريق الأول. إذًا فقد جاء تركيب ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ ملائمًا للسياق الذي ورد فيه، ملبيًا حاجة النص، بلا أدنى أثر فيه للتكلف كأنه لم يقع أصلًا إلا في هذا السياق.

وفي الآية الثانية، قال تعالى: ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ [الكهف: 77]. هذه الآية تعرض مشهدًا لموسى والعبد الصالح، وهما في وسط المفاجأة الثالثة والأخيرة. إنهما الآن في قرية أهلها بخلاء لا يريدون إطعامهما، والظاهر أن الجوع قد بلغ منهما مبلغًا دفعهما إلى استطعام أهل القرية - ولعلهما كانا في سفرٍ شاقٍّ طويل - فإذا أهل القرية يأْبَوْنَ أنْ يضيِّفوهما، وإذا العبد الصالح - وهما في هذه الحالة من التعب والجوع - يرى جدارًا يريد أن ينقض فينهض لإقامته. وموسى يرى هذا المشهد، فيستفزه تصرف الرجل، ولا يدرك مغزاه البعيد: إن أهل القرية قد أَبَوْا إطعام قوم مسافرين لا زاد لهم، وهم في نظره قوم لئام، ومع ذلك فالرجل يكلف نفسه بإقامة جدار لهم يوشك أن ينهار، فينفد صبر موسى رغم الوعد الذي قطعه على نفسه بالصبر، فيعترض قائلًا: ﴿**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾، إن كنت لا بد فاعلًا، فلا أقل من أن تتقاضى على هذا

العمل أجرًا! هنا يعلن العبد الصالح نهاية الرحلة على الاتفاق الذي كان بينهما. وهنا أيضًا قد جاء تركيب ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ملائمًا للسياق الذي ورد فيه، ملبِّيًا حاجة النص، بلا أدنى أثر فيه للتكلف كأنه لم يقع أصلًا إلا في هذا السياق.

الآن وقد رأينا مضمون الآيتين، ننظر إلى التلاقي الغرضي فيهما. فالآيتان تتحدثان عن إقامة البناء وما يدور حوله من الخلاف. فالتنازع حول أصحاب الكهف يدور حول إقامة بنيان عليهم أو مسجد، ويُحسم النزاع لصالح الذين قالوا باتخاذ مسجد عليهم. وكذلك يقع الخلاف بين موسى والرجل الصالح حول إقامة الجدار الذي يريد أن ينقض. وهذا يقيم علاقةً غرضيةً مباشرةً بين الآيتين لا جدال فيها. فبناءً على هذه العلاقة الغرضية المباشرة، نحاول أن نفهم ما إذا كان اتخاذ المسجد على الفتية أمرًا محمودًا أو غيرَ محمود، لما ثار - وما زال يثور - من جدل كبير حول هذه المسألة. فمن ناحية، نلاحظ أن الغلبة كانت للذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، والنص القرآني يوحي بأنهم اتخذوا عليهم مسجدًا، لأن المشهد يُختم بكلامهم. فهذا الاقتراح باتخاذ مسجد عليهم، قد يبدو في ظاهره فعلًا محمودًا لأنه اقتراح ببناء مكان للعبادة. ولكن هل هو حقًّا فعْلٌ محمود؟ ومن ناحية أخرى، نلاحظ أن موسى ﷺ يقترح على الرجل الصالح أن يتخذ على عمله أجرًا: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. وهذا الاقتراح في ظاهره فعل محمود، ولكننا سندرك فيما بعد أنه فعل غير محمود عند ما يشرح العبد الصالح مغزى تصرفاته الغامضة. فإذا كان اقتراح موسى هذا ﷺ فعلًا غير محمود، وهنا بيت القصيد، فهل نستطيع أن نقول إن فعل الذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، كذلك فعل غير محمود؟ إن القرائن المعنوية التي سردناها والتي تُبَيِّن تشابك العلاقة الغرضية بين الآيتين، فوق تشابكهما اللغوي المتفرد، توحي بهذا المعنى. وهذا المعنى تؤيده كذلك الأحاديث الكثيرة التي تنهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.[17] والله أعلم.

تبقى نقطة أخيرة تتعلق باختلاف القُرَّاء في قوله تعالى: ﴿لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. فقد قرأها خمسةٌ من القُرَّاء السبعة، وهم نافعٌ، وعاصمٌ، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكسائيُّ: ﴿لَاتَّخَذْتَ﴾ بتشديد التَّاء وفَتْح الخاء من الفعل الخماسيِّ المزيد «اتَّخَذَ» الذي على وزن «افْتَعَل». وقرأها الباقيان ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿لَتَخِذْتَ﴾ بكسر الخاء من الفعل الثلاثي «تَخِذَ»، «يَتْخَذُ» «تَخَذًا» و«تَخْذًا» من باب فرِح.[18] ولكنهم لم يختلفوا في قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، فقد قرؤوه جميعًا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ بتشديد التاء من الفعل الخماسي «اتَّخَذَ». يقول الإمام الطبري معلقًا على قراءة ﴿لَتَخِذْتَ﴾:

وهي لغة فيما ذُكر لهذيل، وقال بعض الشعراء:[19]

17 انظر: البخاري، **صحيح البخاري: كتاب الجنائز**، [حديث: 1330]. سبق ذكره.

18 أبو بكر بن مجاهد، **كتاب السبعة**، 396. سبق ذكره.

19 الشاعر هو الممزق العبدي، واسمه شأس بن نهار، وهو شاعر جاهلي قديم.

وَقَدْ تَخِذَتْ رِجْلِي لَدَى جَنْبِ غَرْزِهَا نَسِيفًا كَأُفْحُوصِ القَطَاةِ الْمُطَرَّقِ

والصواب من القول في ذلك عندي: أنهما لُغَتَان معروفتان من لغات العرب، فبأيَّتِهِمَا قرأ القارئ فمصيب، غيرَ أني أختار قراءتَه بتشديد التاء على «لافْتَعَلتَ»، لأنها أفصحُ اللُّغَتَين وأشهرُهما، وأكثرُهما على أَلْسُنِ العرب.[20]

فاختيار الإمام الطبري للقراءة التي بتشديد التَّاء هو الصواب، لا لأنها أفصحُ اللغتين وأشهرُهما، وأكثرُهما على أَلْسُنِ العرب فحسب، ولكن لأنها هي القراءة التي لا يصح غيرها لسببين. أحدهما أن الفعل «اتّخَذَ» على وزن «افتعل» من أكثر الأفعال شيوعًا في القرآن كما رأينا، إلا أنه لا يأتي في مواقعه المائة والأربعة والعشرين إلا على وزن «افتعل»، ولا يأتي أبدًا بصيغة «تَخِذَ» على وزن فَعِلَ، يَفْعَلُ، في القرآن كله. والآخر، وهو الأهم، أنَّ قراءة ﴿لَاتَّخَذْتَ﴾ على وزن «لافْتَعَلْتَ» هي التي تتطابق مع قراءة ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ التي اتفق عليها كل القراء. وقد رأينا ما بين هاتين الآيتين من التطابق في التركيب والذي يتمثل في أنَّ حرف الجر «على» لا يأتي تاليًا للفعل «اتَّخَذَ» في القرآن كله إلا في هذين الموضعين. إن قراءة «تَخِذَ» تُخِلُّ بهذا التطابق المتناظر الذي هو من صميم نسق القرآن، وتُدْخِلُ في القرآن صيغةً فعليةً تخالف كلَّ ما جاء فيه من جنسها. يضاف إلى ذلك، أن قول الشاعر: «وَقَدْ تَخِذَتْ رِجْلِي» لا ينهض حُجَّةً لإدخال هذه الكلمة في القرآن، ولا يشهد بصحتها في اللغة، لأن الشاعر في هذا المقام مضطر إلى هذا الوزن الثلاثي للفعل اضطرارًا لإقامة الوزن. ولو أنه استعمل الفعل على وزنه الخماسي لانكسر بيته. وإن كثيرًا مما يستشهد به المفسرون من الشعر هو من هذا القبيل الذي يضطر فيه الشاعر إلى بتر الكلمة أو العدول بها عن صيغتها الجارية حتى يستقيم له الوزن. وبهذا يتضح أن القراءة التي لا يصح غيرها، والقراءة المتسقة مع طريقة القرآن في تحقيق التلاحم بين آيات معينة، هي قراءة ﴿لَاتَّخَذْتَ﴾ التي على وزن «افْتَعَلْتَ». وهذا من المواطن التي نستطيع أن نستعين فيها بنظرية تلاحم البناء اللغوي في القرآن لاستخلاص القراءة الصحيحة من القراءات السبع المشهورة. وهذا من فضل الله وتوفيقه، ووسيلة من وسائل حفظه لكتابه.

* * *

المثال العاشر: {مِّنْهُمْ أَحَدًا}

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]. هذه الآية تأتي بعد موت الفتية، وبعد أن حُسِمَ النزاعُ لصالح الذين قالوا باتخاذ مسجد عليهم، وفيها يلتفت السياق إلى المعاصرين لرسول الله ﷺ وهم يحدسون عدد الفتية. فيقولون: ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ويقولون: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ويقولون: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. ويأتي التعقيب على هذا الحدس: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ولما كان

20 انظر: الطبري، **جامع البيان**، 15: 352. سبق ذكره.

الله سبحانه هو أعلم بعدتهم وما يعلمهم إلا قليل، جاء التوجيه إلى رسول الله ﷺ ألا يماريَ القومَ في أمرهم إلا مراءً ظاهرًا جاء به القرآن صريحًا، بعيدًا عما يَخْبِطُ فيه الناسُ قذفًا بالظنِّ، ورجمًا بالغيب، لأن المراء الظاهر الصريح نقيض الرجم بالغيب، وألا يستفتيَ فيهم منهم أحدًا: ﴿**فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾. ويلفت النظرَ هنا الفعلُ ﴿**تَسْتَفْتِ**﴾ المشتق من الجذر الثلاثي «فتي»، لاتصاله في جذره اللغوي بالفتية الذين جاء النهي عن الاستفتاء فيهم، وكأنه بقوله: «لا تستفتِ» يعني: لا تسأل عن «الفتية».[21]

من هذا النص الذي جاء في قصة الفتية، يقتبس النظم القرآني فاصلة الآية ﴿**مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾، ويجعلها فاصلةً لآيةٍ أخرى في مشهدٍ من مشاهد القيامة على طريقة القرآن في الربط بين القصص الذي يقع في الحياة الدنيا والنتيجة التي تتحقق في الدار الآخرة. قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [الكهف: 47]. إن عبارة ﴿**مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ التي تختم بها هذه الآية لا ترد في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة الكهف، وهو تَفَرُّدٌ يُقْصَد به الربطُ بين الآيتين. ونعلم ذلك من أن الكلمتين اللتين تتألف منهما هذه العبارة شائعتان في القرآن. فعبارة «منهم» تتكرر في مائةٍ وخمسٍ وستين آية، وكلمة «أحد» تتكرر أربعًا وسبعين مرة. ومع ذلك، فإن هاتين الكلمتين لا تجتمعان بهذا التركيب وهذا الترتيب[22] إلا في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [الكهف: 22]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [الكهف: 47].

ولكن ما العلاقة بين الآيتين من حيث الغرض بين قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [الكهف: 22]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [الكهف: 47]؟ وعَلَامَ يعود الضمير في قوله: ﴿**مِّنْهُمْ**﴾ في الأولى وفي الثانية؟ يتفق المفسرون أن الضمير في ﴿**مِّنْهُمْ**﴾ في الآية الأولى يعود على أهل الكتاب، وأن النهي عن الاستفتاء في شأن الفتية جاء في حقهم. إلا أنهم يختلفون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ**﴾ وقوله: ﴿**وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ**﴾، وقوله: ﴿**وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ**﴾، ويوزعون الضمائر في هذه الأقوال على طوائف مختلفة من الناس: إن الذين قالوا: ﴿**ثَلَاثَةٌ**﴾ هم اليعقوبية، والذين قالوا: ﴿**خَمْسَةٌ**﴾ هم النسطورية – وكلتا الطائفتين من النصارى – والذين قالوا: ﴿**سَبْعَةٌ**﴾ هم المسلمون.[23] فبذلك يكون المسلمون أصابوا العدد الصحيح لأن العدد «سبعة» لم تُذْكَرْ بعده عبارةُ ﴿**رَجْمًا بِالْغَيْبِ**﴾، التي جاءت بعد العدد «خمسة». وهذا دليل في نظر المفسرين على إصابة المسلمين الحق. والواقع أن النص القرآني لا يحدد أصحاب هذه الضمائر، ولا يحدد طوائفهم، وإنما يسوق الحديث على أنه كان حدسًا وتخمينًا من الخائضين في أمر الفتية. فالذي يتسق مع سياق الآية وتركيبها النحوي هو أن الضمير يعود في الأقوال الثلاثة، وفي عبارة ﴿**مِّنْهُمْ**﴾ على غير المسلمين، من أهل الكتاب والمشركين، الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في أمر الفتية. ومن هنا جاء النهي عن استفتائهم فيهم.

---

21 ومثل هذا التوافق مقصود في القرآن قصدًا وله نظير في سورة يوسف، في قوله تعالى: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ**﴾ [يوسف: 36]. وفي قوله تعالى: ﴿**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ [الكهف: 41]، كأنما يشير بهذا الربط بين الفتيَيْن والاستفتاء إلى تحقق تعبير الرؤيا.

22 وقد تجتمع هاتان الكلمتان في تركيب واحد ولكن بتركيب مختلف كما في قوله تعالى: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ [البقرة: 136]، أو بالفصل بينهما بحرف جر، كما في قوله تعالى: ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ**﴾ [مريم: 98].

23 انظر: الزمخشري، **الكشاف**، 3: 575. سبق ذكره. وانظر أيضًا: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 13: 246. سبق ذكره.

ويؤيد هذا الذي نقول، أنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47] في يوم القيامة، يعود على الكفار الذين كانوا ينكرون البعث، بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 48]. لا شك أنّ الحشر في يوم القيامة يتناول الخلائق أجمعين، إلا أنَّ هذه الآية تخاطب هؤلاء بالذات، وتنص نصًّا على أنَّ الحشر لا يغادر منهم «أحدًا»، لأنهم هم الذين كانوا يرتابون في البعث - وإثبات البعث من الأهداف الرئيسية التي من أجلها سيقت قصة أصحاب الكهف - فهي هنا تواجههم بوقوعه، وهم وقوف في أرض المحشر مكشوفين لا يسترهم في الأرض البارزة ساتر: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]. ها هم أولاء وقد كذب زعمهم، وتحقق وعد الله، والآية تسجل عليهم كذبهم وتُخْزِيهم وتُذِلُّهم فلا يستطيعون أن يُوَارُوا أجسادَهم، ولا أن يُدارُوا زعمهم الكاذب.

ومما يؤيد كذلك هذا الذي نقول، إنّ السياق يستمر في عرض المشهد من ساحة الحشر، وقد وُضِعَ كتاب الأعمال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]. إنّ النظم القرآني هنا يستعمل كلمة ﴿يُغَادِرُ﴾ التي لا تظهر في القرآن كله إلا في هذا السياق المتصل للتأكيد على اتصال هذه الآيات في اللفظ وفي المدلول. فقد قال هناك: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]، وقال هنا: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]. فالحشر لا يغادر منهم أحدًا، والكتاب لا يغادر من أعمالهم شيئًا. وقد ألمحنا من قبل إلى أن السياق القرآني يكرر بعض العناصر اللغوية الفريدة في مواقع متقاربة ليقيم علامة على تلاحم تلك المواقع. كما نلاحظ استعمال عبارة: ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]، في مقابل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12]. فاليوم الإحصاء دقيق لا يتنازع فيه اثنان، في مقابل الإحصاء الذي كان الناسُ يختلفون فيه في حياتهم الدنيا. ولفظ الإحصاء لا يقع في القرآن إلا سبع مرات،[24] ولا يتكرر مرتين في سورة واحدة إلا في هاتين الآيتين من سورة الكهف، مما يدل على أنه آصرة لغوية وظيفتها الربط بين مقطعين مختلفين. بمثل هذا التلاحم المتشابك المدهش الدقيق، ترتبط قصة أصحاب الكهف بمشهد من مشاهد القيامة، وتلتحم الدنيا بالآخرة، ويصدِّقُ اللاحقُ من آيات السورةِ السابقَ منها. وسنرى تصديقًا شبيهًا بهذا في المثال القادم.

* * *

24 [إبراهيم: 34]، [النحل: 18]، [مريم: 94]، [يس: 36]، [المجادلة: 6]، [الطلاق: 1]، [الجن: 28]، [النبأ: 29].

المثال الحادي عشر: {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي...}

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: 56]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 106]. تقع هاتان الآيتان في مقطعين متباعدين من مقاطع السورة يفصل بينهما خمسون آية. تنتمي الآية الأولى إلى الموعظة، والثانية إلى مشاهد القيامة. ولكن تجمع بينهما آصرتان لغويتان لا نظير لهما في القرآن: الآصرة الأولى هي عبارة ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ التي لا تظهر في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة الكهف. والآصرة الثانية هي كلمة ﴿هُزُوًا﴾ التي لا تقع في موقع الفاصلة في القرآن إلا في هاتين الآيتين كذلك. وقد خص النظم القرآني سورة الكهف بهاتين الآصرتين، رغم شيوع كلماتهما في القرآن. فالفعل «اتَّخَذَ» يتكرر في القرآن مائةً وأربعًا وعشرين مرة، وإنَّ أكثر ورود له في سورة الكهف، كما مرَّ بنا. وكلمة «آيات» بصيغة الجمع تكررت مائتين وثمانين مرة. إلا أن تركيب ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ لا يقع في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين. وكذلك كلمة ﴿هُزُوًا﴾ تقع إحدى عشرة مرة في القرآن، ولكنها لا تظهر في موقع الفاصلة إلا في هاتين الآيتين، كما ذكرنا.

ومما يدل على أنّ اختصاص سورة الكهف بهذا التركيب أمر مقصود أننا نجد هذه الكلمات الثلاث في آيات أخرى في القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: 9]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: 35]. نجد في هاتين الآيتين من سورة الجاثية نفس الكلمات الثلاث التي معنا في سورة الكهف، ولكن مع اختلاف في التركيب وفي الترتيب يحفظ لآيَتَي الكهف تفردهما. كما نجد فيهما ترتيب الجزاء في الآخرة على ما سبق من العمل في الدنيا، إذْ إنَّ الآية الأولى [الجاثية: 9] تأتي في سياق الجدل مع الكفار، والثانية [الجاثية: 35] تأتي في مشهدٍ من مشاهد القيامة، وفيها إشارة واضحة إلى تعليل الجزاء: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، تتمثل في كلمة: ﴿ذَٰلِكُم﴾ التي تبدأ بها الآية الثانية [الجاثية: 35]. وهذا التعليل هو نفسه الذي نجده في آيتي الكهف. فالآية الأولى تأتي في سياق الجدل مع الكفار: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: 56]. والآية الثانية تأتي في مشهدٍ من مشاهد القيامة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 106]، وفيها كذلك إشارة واضحة إلى تعليل الجزاء تتمثل في كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ التي تبدأ بها الآية الثانية [الكهف: 106]. ومع هذا التشابه بين هذه الآيات الأربع في سورة الكهف وسورة الجاثية، تبقى آيتا الكهف متفردتين. ثم إنَّ هذا النسق، نسقَ ترتيب الجزاء في الآخرة على ما سبق من العمل في الدنيا، ونسقَ تقديم الإنذار في الدنيا وإظهار نتيجته في الآخرة، نَسَقٌ ملحوظٌ يتَّبعه القرآن بانتظام في قصصه، وفي أمثاله، وفي مواعظه داخل السورة الواحدة. وقد مرت بنا شواهدُ على مثله فيما سلف من الأمثلة. وهكذا تتظاهر الألفاظُ، والأغراضُ، والأنساقُ لتحقيق التلاؤم بين الآيات المختلفة في السورة الواحدة.

ثم يستوقف النظرَ الفرقُ بين قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: 56]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 106]. فقد استُبدلت بعبارة ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ في الآية الأولى عبارةُ ﴿وَرُسُلِي﴾ في الآية الثانية للتوحيد بين الإنذار وبين الرسل. فالذي يستهزئ بالنذير الذي جاءت به الرسل، إنما يستهزئ بالرسل أنفسهم. ويزداد هذا المعنى كثافةً بهذه الإضافة التي جاءت في ﴿وَرُسُلِي﴾، وهي إضافةٌ عُلْوِيَّةٌ تُعْلي من شأن الإنذار، كما تُبْرِز مكانةَ الرسل عند الله سبحانه. ثم تتضافر الإضافةَ في ﴿آيَاتِي﴾ مع الإضافة في ﴿وَرُسُلِي﴾ لتُلْقي في الرُّوعِ معنى الاستهزاء بالله، لأن الذي يستهزئ بآيات الله ورسله، فإنما يستهزئ بالله سبحانه. والقصد من هذا كله هو تفظيع هذه الجريمة، جريمة الاستهزاء بالله ورسله – والاستهزاء أقوى سلاحٍ أشهره الكفار في وجه الرسل والرسالات على مدار التاريخ – ثم تسجيل حيثيات استحقاق المستهزئين للعقاب الذي ينالهم في الآخرة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 106]. إن الذي يكفر ويتخذ آياتِ اللهِ ورسلَه هزوًا لا ينتظر إلا جهنم جزاءً له.

* * *

المثال الثاني عشر: {زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...}

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]. وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]. هاتان الآيتان تقعان في قطاعين مختلفين، ولكن تشتركان في عبارة ﴿زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي لا تظهر في القرآن كله إلا فيهما، والتي تتكون من كلمتين مألوفتين. فكلمة ﴿زِينَة﴾ تتردد في القرآن تسع عشرة مرة، وعبارة ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إحدى وستين مرة، إلا أنهما لا تدخلان في هذا التركيب إلا في هذين الموضعين من سورة الكهف. وكلتاهما تتجه بالخطاب إلى النبي ﷺ، والمتكلم فيهما هو الله سبحانه. فالأولى تأتي عند التعقيب على قصة أصحاب الكهف، والثانية عند التعقيب على قصة صاحب الجنتين، وعلى المثل الذي ضربه الله للناس في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]. وفي هذا المثل ذكرٌ للحياة الدنيا.

إنّ هذا التلاحم اللفظي وراءه تلاق في الغرض. ففي الآية الأولى توجيه للنبي ﷺ أن ينحاز إلى المؤمنين المخلصين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. والأمر بالصبر ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ يوحي بما في هذا الانحياز إلى أولئك المؤمنين من مجاهدة للنفس وحملها على أمر شاقٍّ لأن المنحاز إليهم فقراء. فالانحياز إلى الفقراء غالبًا ما يكون على حساب الكبراء الذين يريدون أن يستأثروا بالمكانة الدينية والاجتماعية لأنفسهم، ولا يطيقون أن يشاركهم فيها أحدٌ من الفقراء. ثم يأتي توجيه آخر ينهاه أن تتجاوز عيناه أولئك الفقراءَ إلى غيرهم: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

﴿عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. ويلفت النظرَ هذا الأمرُ الصادر إلى العينين في دقة مدلوله لأن «زينة الحياة الدنيا» أمر مادي محسوس يجذب العين. ثم يأتي توجيه آخر ينهى النبي ﷺ عن طاعة فريق من الناس غفل قلبه عن ذكر الله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. ويلفت النظر هنا أيضًا اختيار القلب لأنه محل التدبر والتذكر. فهؤلاء لا يتدبرون ولا يتذكرون لأنهم محصورون في دائرة المحسوسات، دائرة زينة الحياة الدنيا التي تحجب عنهم رؤية ما وراءها. ثم نلحظ في هذه الآية إرادتين: إرادة وجه الله وإرادة زينة الحياة. فلا ينبغي أن تكون إرادة النبي ﷺ متجهة إلى زينة الحياة الدنيا، بينما تكون إرادة المؤمنين معه متجهة إلى الله سبحانه. ومن هنا نهاه الله أن تعدو عنهم عيناه يريد زينة الحياة الدنيا.

لكن الآية لا تحدد طبيعة هذه الزينة لأن تحديدها متروك للآية الثانية: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]. إن زينة الحياة الدنيا التي أشارت إليها الآية السابقة هي المال والبنون. فحَوْلَ المال والبنين تدور مباهج الحياة الدنيا، وهما أهم ما يتباهى به الناس ويتفاخرون ويتكاثرون. نفهم أن الآية الثانية تحدد معنى زينة الحياة الدنيا أولًا من تكرار عبارة ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهو تكرار فريد كما أسلفنا. وثانيًا من كون الخطاب موجَّهًا إلى النبي ﷺ في الآيتين، في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، وقوله: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾. وفوق ذلك، فقد علِمْنا أن الآية الثانية جاءت تعقيبًا على قصة صاحب الجنتين وعلى مَثَلِ الحياة الدنيا الذي ضربه الله للناس، وكلاهما يصور الحياة الدنيا أبدع تصوير. وجاء كذلك في قصة صاحب الجنتين ذِكْرٌ صريح للمال والولد. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39]. وهكذا نجد الآيتين متلاحمتين في اللفظ، ومتلاقيتين في المعنى، وتفسر إحداهما الأخرى.

* * *

المثال الثالث عشر: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ...}

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101]. تقع هاتان الآيتان – وقد ناقشنا الأولى منهما في الفقرة السابقة – في موقعين متباعدين، ولكن تَتَّحِدَان بآصرة لغوية لا توجد في القرآن كله إلا فيهما. وهذه الآصرة هي أن عبارة «عن ذِكْر» التي تتكرر في القرآن اثنتي عشرة مرة، تتكرر في سورة الكهف مرتين في قوله تعالى: ﴿قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾، ولا تقع إلا مرة واحدة في السور الأخرى التي ترد فيها.[25] وفوق هذا التكرار الذي تنفرد به سورة الكهف، فإن هذه

25 [المائدة: 91]، [طه: 124]، [الأنبياء: 42]، [المؤمنون: 71]، [النور: 37]، [ص: 32]، [الزخرف: 36]، [النجم: 29]، [المنافقون: 9]، [الجن: 17].

العبارة لا تجتمع مع كلمة «العين» في آية واحدة إلا في هاتين الآيتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾. وهذا الاجتماع هو الذي يجعلها آصرة متفردة لا نظير لها في القرآن تربط بين موقف كان في الحياة الدنيا، ومشهد من مشاهد القيامة، على طريقة القرآن في وصل الدنيا بالآخرة. إن الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكر الله هم أولئك الذين لم يكونوا يرون إلا زينة الحياة الدنيا. فهم اليوم يَلْقَوْنَ جزاءهم جهنمَ تعرض لهم عرضًا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: 100].

وثمة إيحاء بلاغي ملحوظ في تكرار كلمة «العين» في الآيتين. ففي الآية الأولى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾. إن الفعل عدَا، يعْدُو، عدْوًا، في العادة يتعدى إلى مفعوله بلا حرف جرٍّ. يقال عدا طورَه، أي جاوزه.[26] أما في هذه الآية فتعدَّى بعَنْ – فيما يظهر – لسببين: أولهما أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يفيد أنَّ المطلوب من العينين هو الاستمرار في ملازمة الفقراء، لا تَجَاوُزُهُمْ ابتداءً، لأن ملازمتهم قائمة بالفعل. ولو قيل: «وَلَا تَعْدُهُمْ عَيْنَاك» لكان معنى ذلك أن الملازمة لم تكن واقعة، وأن المطلوب هو عدم تجاوزهم ابتداءً. فالدليل على ذلك هو قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. فهو معهم بالفعل، والمطلوب منه هو الصبر على الاستمرار في هذه المعية. والثاني، وهو المهم في سياق تحليلنا للتلاحم اللغوي، أنَّ حرف الجرِّ «عَنْ» لا يأتي تابعًا للفظة «العين» ومتعلقًا بها في آية واحدة في القرآن كله[27] إلا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾. وذلك على الرغم من أن لفظة «العين» تتكرر في القرآن، مفردةً كعَيْن، أو مجموعةً كأَعْيُن، سبعًا وأربعين مرة. ولو قيل: «وَلَا تَعْدُهُمْ عَيْنَاك» لاختلَّ هذا التناظر المتفرد بين الآيتين.

* * *

المثال الرابع عشر: {أَحْسَنُ عَمَلًا}

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30]. تقع الآية الأولى في مقدمة السورة، والثانية في قطاع الموعظة. إن النظرة الفاحصة تكشف أن الأولى لم تأتِ إلا تمهيدًا للثانية في لفظها وفي معناها. فالآية الأولى تقرر أن الله سبحانه وتعالى جعل ما على الأرض زينةً لها لِيَبْلُوَ الناسَ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. إنه اختبار لا بد له من نتيجة. والنتيجة تأتي في الآية الثانية، والتي تقرر أن الله لا يُضيعُ ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾. فقد اقتبس النظم القرآنيُّ كلمات من الآية الأولى، وأجرى عليها تعديلًا يلائم السياق الجديد، وصاغ منها آيةً تقرر تلك النتيجة. فعبارة ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ جاءت بصيغة أفعل التفضيل

---

26 انظر: الزمخشري، **الكشاف**، 3: 581. سبق ذكره.

27 الموضع الوحيد الذي يقع فيه حرف الجر في آية واحدة مع كلمة «العين» هو قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ [القمر: 37]. لكن حرف الجرّ هنا جاء تابعًا للفعل «راود»، لا للأعْيُن.

﴿أَحْسَنُ﴾ لأن الاختبار فيه مفاضلة بين الناس في الأداء. وعبارة ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ جاءت بصيغة الفعل الماضي ﴿أَحْسَنَ﴾ لأنها إعلان عن النتيجة بعد أداء الاختبار. وهكذا تُقتبس الكلمات من بيئةٍ لغويةٍ متقدمة، ويعاد استعمالها في بيئةٍ لغويةٍ متأخرة، وقد لبَّت حاجة المعنى وحاجة التركيب في آن واحد، وهي في البيئتين جزء أصيل من بناء الآية، لا عنصر دخيل.

أما الذي يجعل هذا الاقتباس فريدًا من نوعه، فهو أن عبارة «أحسن عملًا» – التي تتكرر في القرآن أربع مرات، مرتين في هذه السورة، وثالثةً في [هود: 7]، ورابعةً في [الملك: 2] - لا تقع في موقع الفاصلة إلا في هاتين الآيتين. ولكن وقوعها في موقع الفاصلة ليس هو وحده الذي يجعلها متفردة. وإنما الذي يجعلها متفردة هي أنها لا تجتمع بعبارة ﴿إِنَّا﴾ – التي تشير إلى الذات العلية في الحالتين – إلا في هاتين الآيتين. إن الله الذي جعل ما على الأرض زينةً لها ليبلو الناسَ أيُّهم أحسنُ عملًا، يَعِدُ عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنه لا يُضيع أجر من أحسنَ عملًا منهم. وهذا دليل آخر على تلاحم مقدمة سورة الكهف مع بقية أجزاء السورة، على خلاف ما تقوله الدراسات الاستشراقية التي لم تتناول السورة بالدقة العلمية المطلوبة.

* * *

المثال الخامس عشر: {ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع...}

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82]. وقال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]. تقع الآية الأولى في قصة أصحاب الكهف، والثانية في قصة ذي القرنين. ولكنهما تشتركان في فعل «اسطاع»، وهو فعلٌ حُذفت منه تاء استطاع، ولا يقع مثله في القرآن كله إلا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾. وواضح أن الغرض من تكرار هذا الفعل الذي حُذفتْ تاؤه في الآيتين هو لفت النظر إلى العلاقة بين هذين الجزأين من السورة. فالآية الأولى تُختم بها قصة موسى مع العبد الصالح، تلك القصة الحافلة بالمفاجآت الثلاث. والآية الثانية تُختم بها قصة ذي القرنين، تلك القصة التي يقوم فيها الرجل الصالح برحلاته الثلاث. وللفت النظر إلى هذه العلاقة، جاء بالفعل «اسطاع» وقد حذفت منه التاء في الموضعين لتكون آصرة لغوية متفردة تربط بين خاتمَتَي القصتين. ولا خلاف بين القراء السبعة، ولا العشرة، في إسقاط التاء من قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾. وتظهر أهمية هذا الحذف حين نعلم أن الفعل «استطاع» يتكرر في القرآن اثنتين وأربعين مرة، وأكثر وروده في سورة الكهف إذ يرِد فيها تسع مرات، ولا تسقط منه تاؤه إلا في هاتين الآيتين.

أمّا من حيث الغرض، فإنّ الآيتين تلتقيان في أن الله يكشف لنا غيوبه حين يشاء. فموسى ﷺ لم يستطع أن يصبر على الأفعال العجيبة التي قام بها الرجل الصالح، ولا أن ينفذ إلى ما وراءها من أسرار. حتى إذا انتهت الرحلة إلى غايتها، كشف الرجل الصالح النقاب عن تلك الأسرار، وعرف موسى تأويلها، وعرفناها نحن معه. وكذلك ذو القرنين يفرغ من بناء السد بين الصدفين بناءً محكمًا استعمل فيه مواد شديدة الصلابة من مزيج من النحاس المذاب والحديد، فلا يستطيع يأجوج ومأجوج أن يتسوَّروه ولا أن ينفذوا منه. ولكن حين يأتي وعد الله يُنقَض ذلك السد، ويُسَوَّى بالأرض، وتقوم الساعة: ﴿**قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ [الكهف: 82]. وعندئذٍ يستطيع يأجوج ومأجوج أن يَنْفُذُوا من السد، كما استطاع موسى أن ينفذ إلى أسرار تلك المفاجآت مع نهاية الرحلة. بمثل هذا الإيحاء الخفي اللطيف، والمدهش العجيب في الوقت نفسه، تلتقي الآيتان في الغرض، كما التقتا من قبل في اللفظ.

* * *

المثال السادس عشر: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن...}

قال تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: 66]. وقال تعالى: ﴿**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**﴾ [الكهف: 94]. إن النظرة الأولى إلى هاتين الآيتين لا توحي بوجود أي علاقة بينهما في اللفظ أو في المدلول، وخاصة إذا قرأهما الإنسان في موقعيهما المتباعدين وقصتيهما المختلفتين في المصحف. ولذلك لا تجد في كتب التفسير أي إشارة للربط بينهما، حتى في تلك التفاسير التي تهتم بذكر مناسبة الآيات. فالآية الأولى [الكهف: 66] تَعْرِضُ أول حوارٍ دار بين موسى ﷺ والعبد الصالح، يقول فيه موسى للعبد الصالح: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ؟**﴾. وهذه عبارة تلفت النظر بقوة. هذا موسى، وهو النبي الكريم الذي كلمه الله تكليمًا، يطلب ويستأذن أن يكون تابعًا لعبد من عباد الله. ويحدد الغاية من هذا الاتباع: ﴿**عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾. وتعبير ﴿**عَلَىٰ أَن**﴾ يفيد الشرط، ويحدد الهدف، وهو العقد الذي بينه وبين العبد الصالح الذي يدرك خطورة هذا السؤال ويشترط هو الآخر لهذا الاتباع شرطًا من جانبه، كما نعلم من القصة.[28] والآية الثانية تعرض كذلك أوَّلَ حوارٍ دار بين ذي القرنين وبين القوم الذين لا يكادون يفقهون قولًا لما بلغ بين السَّدَّين، والذين شكوا إليه يأجوج ومأجوج وإفسادهما في الأرض، فقالوا له: ﴿**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا؟**﴾. وتعبير ﴿**عَلَىٰ أَن**﴾ يفيد الشرط هنا أيضًا. إنهم يَعِدُون ذا القرنين أن يعطوه خرجًا، أي أجرًا، على أن يَبْنِيَ لهم سدًّا يحجز عنهم خطر يأجوج ومأجوج. وهذا شرطهم. وفي مقابل شرطهم هذا، يقدم ذو القرنين شرطًا آخر من

28 ﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ [الكهف: 70].

جانبه، وهو أنه لا يريد مالهم، ولكن يشترط عليهم أن يُعِينوه بقوة،[29] بسواعدَ قويةٍ، وأيدٍ ماهرةٍ تحسن البناء والعمل،[30] ويُمِدُّوه بموارد مادية تُستعمل في إقامة السد.[31]

من هذا التحليل السريع لمضمون الآيتين تبرز لنا جملة من السمات النصية: أولًا، أن الحوار هو العنصر البارز في هاتين الآيتين، وأنه أول حوار يقع بين الطرفين في الحادثتين. ثانيًا، يبدأ الحوار بالاستفهام، وأداة الاستفهام المستعملة في الآيتين هي «هَلْ». ثالثًا، يتضمن الحوار الشرط، وأداة الشرط المستعملة هي عبارة «عَلَى أنْ». رابعًا، وهذا ليس موجودًا في الآيتين، وإنما يأتي في الآيات التي تلي كُلًّا منهما، أن الشرط من السائل يقابله شرط آخر من المسئول. خامسًا، يريد السائل في الحالتين منفعة معينة من المسئول تتحقق من خلال قدرة خاصة يهبها الله للمسئول: فموسى يسأل العبد الصالح أن ينفعه بما آتاه الله من العلم. والقوم الذين وجدهم ذو القرنين يسألونه أن ينفعهم ببناء السد بما مكن الله له في الأرض. إن هذه السمات الخمس البارزة وحدها كافية للربط بين هاتين الآيتين برباط محكم وثيق. ولكن إذا أضيفت إليها حقيقة لغوية أخرى متفردة، اتخذ هذا الرباط صورة مادية ملموسة لا تقبل الإنكار ولا المراء. وهذه الحقيقة اللغوية هي أنّ عبارة ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾ لا تقع مقترنة بأداة الاستفهام ﴿هَلْ﴾ في آية واحدة في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة الكهف. وفوق ذلك، فإنّ عبارة ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾ التي تفيد الشرط نادرة في القرآن، ولا تقع فيه إلا ثلاث مرات: مرتين في سورة الكهف، ومرةً ثالثةً في سورة القصص، وهي قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ**﴾ [القصص: 27]. والعجيب في هذه الآية أنها هي الأخرى تقع في قصة موسى في سياق حوار بينه وبين الرجل الصالح الذي أراد أن يزوِّجه ابنته واشترط عليه أن يكون أجيرًا لديه. وهذا التداخل بين الحوارين في سورة الكهف وفي سورة القصص مما يقطع بأن موسى الذي في الكهف هو نفس موسى بني إسرائيل، وسنعود إلى هذه القضية بعد قليل. وأخيرًا، ثمة عنصر لغوي آخر يربط بين هاتين الآيتين، وهو فاصلتهما: ﴿رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، و﴿سَدًّا﴾ [الكهف: 94]. فكلتاهما ثلاثية تنتهي بالدال، وتتكوَّن من سببين خفيفين. ويزيد الفاصلتين تلاحمًا قراءةُ ﴿سُدًّا﴾، بضم السين، وهي قراءة نافع، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر، لِمَا في ذلك من توحيد حركة الضمة فيهما.[32] بمثل هذا التلاحم المدهش العجيب الذي لا يقع مثله إلا في القرآن، تتلاحم الآيتان، وتتشابك القصتان.

والآن نأتي إلى قضية الشك الذي يثار حول شخصية موسى الذي في سورة الكهف، وهو شك قديم ذكرته كتب التفسير في العصر القديم، ويثيره المستشرقون في العصر الحديث. لقد تناقل المفسرون أن نَوْفًا البِكَالِيَّ، ابنَ امرأةِ كعبِ الأحبار، زعم أن موسى الذي جاء ذكره في سورة الكهف ليس هو موسى بن عمران، وإنما هو

---

29 ﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**﴾ [الكهف: 95].

30 انظر: الزمخشري، **الكشاف**، 3: 615. سبق ذكره.

31 انظر سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2292. سبق ذكره.

32 أبو بكر بن مجاهد، **كتاب السبعة**، 399. سبق ذكره.

موسى بن منسا، أو منشا، أو مشنى، أو منشى.[33] ولكنهم جميعًا يردُّون هذا الذي زعمه نوفٌ البكالي.[34] أما المستشرقون فيعتمدون في التشكيك في شخصية موسى على حادثتين أسطوريتين. إحداهما أن جلجامش، البطل الأسطوري في **ملحمة جلجامش** الشهيرة، أثناء بحثه عن الخلود يلتقي برجل أسطوري رُزِقَ الخُلودَ اسمُه أوتو نَبِشْتِمْ،[35] يعيش عند فم الأنهار ("the mouth of the rivers").[36] فيفسرون «فم الأنهار» بأنه ﴿**مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ [الكهف: 60]. ويقولون بناءً على هذا إنَّ أوتو-نَبِشْتِم الذي لقيه جلجامش هو العبد الصالح الذي لقيه موسى ﷺ. والثانية أن طباخ الإسكندر الأكبر يعثر على نبع الحياة عَرَضًا، حين دبت الحياة فجأة في سمكة مجففة كان يغسلها فانفلتت منه وطفقَتْ تسبح في البحر. ويقولون استنادًا إلى هذا إن طباخ الإسكندر هو فتى موسى، وإن الإسكندر هو موسى.[37] وكلُّها، كما هو واضحٌ، مزاعمُ لا تقوم على أساس. فما زعَمَهُ نَوْفٌ البكاليُّ نقلًا عن زوج أمِّه كعبِ الأحبار خبرٌ لا قيمة له. وما زعَمَهُ المستشرقون لا قيمة له كذلك لأنه يلتقط كلمة أو حادثة من الأساطير ويحاول أن يقيم على أساسها علاقةً بينها وبين ما جاء في القرآن. وقد أدرك هذه الحقيقةَ المتأخرون من المستشرقين وقرروا أن هذه العلاقة في أفضل أحوالها واهية.[38] وما يهمنا هنا هو أن نثبت من القرآن أن موسى الذي في سورة الكهف هو موسى بن عمران وليس شخصًا آخر سواه.

ولعل ما شكك الناس في شخصية موسى هو اختلاف السياق الذي دارت فيه قصته في سورة الكهف عن السياقات الأخرى التي تدور فيها قصته في السور الأخرى في القرآن. إن موسى لا يظهر في القرآن إلا ومعه أخوه هارون، أو عصاه، أو قومه بنو إسرائيل، أو أهله، أو فرعون وملؤه وجنوده وسحرته. لا يظهر إلا وهو في مواجهة مع فرعون وقومه، وملئه، وسحرته، أو في مواجهة مع قومه بني إسرائيل في أحداث ضخمة غيرت مسار التاريخ، وحررت بني إسرائيل من طغيان فرعون، وقضت في النهاية على ملك فرعون. أما في هذه السورة فيظهر وليس معه أحد من هؤلاء. ليس معه إلا فتاه الذي لم يُسَمِّهِ القرآنُ كما لم يُسَمِّ العبدَ الصالحَ في تناغمٍ تامٍّ مع الجو الغامض الذي يحيط بالأحداث العجيبة في القصة. ولا نرى مما نعهد في قصته إلا البحر الذي شهدَ نجاته من الغرق في طفولته، وشهد انتصاره على فرعون في كهولته.

---

33 انظر: الطبري، **جامع البيان**، 15: 326. وابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز**، 1200. والزمخشري، **الكشاف**، 3: 598. والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 13: 315. سبق ذكر هذه المصادر كلها.

34 حدثنا ابنُ حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا ابنُ إسحاق، عن الحسن بن عُمارة، عن الحكم بن عتيبة، عن سعيد بن جبير، قال: جلستُ عند ابن عباس وعنده نفرٌ من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوفًا ابنَ امرأةِ كعبٍ يزعم عن كعب، أن موسى النبيَّ الذي طلب العالِمَ، إنَّما هو موسى بن منسا. قال سعيد: قال ابن عباس: أَنَوْفٌ يقولُ هذا؟ قال سعيد: فقلتُ له نعم، أنا سمعت نوفًا يقول ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم. قال: كذَب نَوْفٌ. انظر: الطبري، **جامع البيان**، 15: 326.

35 انظر: طه باقر، **ملحمة كلكامش: أوديسا العراق الخالدة** (لا ذكر في الكتاب لدار النشر وتاريخ النشر)، 106 وما بعدها.

36 Brannon M. Wheeler, "Moses or Alexander? Early Islamic Exegesis of Qur'ān 18:60-65," *Journal of Near Eastern Studies*, 57, no. 3 (Jul., 1998), 192.

37 Ibid., 195.

38 Ibid., 191.

غير أنّ تأمل القصة وما فيها من الأحداث يكشف عن توازٍ عجيب بين قصة موسى في القرآن وبين قصته في سورة الكهف. وذلك أن قصته في سورة الكهف ليست إلا شريطًا يَعْرِضُ حياتَهُ الشخصية والرسالية بصورةٍ درامية حافلةٍ بالمفاجآت والمفارقات. فخرقُ السفينةِ وتعريضُ أهلِها للغرق يقابله إلقاءُ موسى في اليم في طفولته وتعريضُه للغرق، كما يقابله انفلاقُ البحر له في كهولته ونجاتُه، وغرقُ فرعون، ويقابله كذلك انفلاتُ الحوتِ من فتاهُ ليتخذَ سبيلَهُ في البحر عجبًا. وقتلُ الغلام يوازيه قتلُ موسى للرجل المصري. وإقامةُ الجدارِ بلا أجر تُساوي سقايةَ موسى للمرأتين بلا أجر.[39] إن هذه الأحداث المتقابلة بين القصتين لَتُثْبِتُ بما لا يدع للشك مجالًا أن موسى الذي في سورة الكهف هو نفسه موسى بن عمران الذي أرسله الله إلى بني إسرائيل. وليست الأحداث الخارقة التي عُرِضَتْ عليه في سورة الكهف إلا مرآة تعكس ما جرى له في الواقع في عالمٍ موازٍ ولكن بصورة تحمل مغزًى وحكمةً أعمق مما يدركه الناس بعلمهم المحدود. ومن الموافقات اللفظية العجيبة التي تعكس شخصية موسى في القصة أنه يقول للعبد الصالح: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: 74]. فعبارة «قتلت نفسًا» لا ترد في القرآن كله إلا في حقه ﷺ. قال تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40]. وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: 19]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: 33]. ومن ذلك أيضًا، قولُه للعبد الصالح: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 33]. يقابل هذه الآيةَ قولُ الرجلِ الصالح لموسى وهو يعرض عليه ابنته: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27].[40] إنّ هذه القرائن اللفظية تتضافر مع القرائن المعنوية لتؤكد جميعًا أن موسى في القرآن شخصية واحدة. بعد هذه الوقفة الطويلة نوعًا ما، والتي لم يكن منها بُدٌّ لدفع هذه الشبهة المثارة حول شخصية موسى ﷺ، نعود إلى ما كنا فيه من تحليل الأمثلة.

* * *

المثال السابع عشر: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت...}

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90]. هاتان الآيتان تصوران مشهدين متقابلين في قصتين مختلفتين في موقعين متباعدين. فالآية الأولى تصور أصحاب الكهف وهم في فجوةٍ من كهفهم، والشمس تتحرك حولهم حركة الحاني العطوف، فهي تتحاشاهم فلا تصيبهم بما يضرهم من أشعتها، وإنما تُلْقي عليهم من ضوئها ما يحفظ لهم أجسادهم. والآية الثانية تتحدث عن ذي القرنين في رحلته الثانية إلى المشرق بعد رحلته الأولى إلى المغرب، وتصور الشمس وهي

---

39 نفهم أنه سقى لهما بلا أجر من قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25].

40 إنّ عبارة: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ لا ترد في القرآن إلا ثلاث مرات: مرتين في حق موسى، ومرةً ثالثةً في حق إبراهيم وابنه الذبيح عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102].

في مطلعها تسلط أشعتها على قوم ليس بينهم وبينها حاجز ولا ساتر يقيهم حرها، والأرجح أنهم كانوا في أرض ليس فيها تضاريس طبيعية تحميهم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾؛ أي إنه فعل تكويني من خَلْقِ الله، ولعلهم كانوا قومًا لا يعرفون اتخاذ أبنية وحصون تقيهم حر الشمس، فجاء ذو القرنين يعلمهم بناء المنازل والأكنان لاتقاء حر الشمس. ومما يدل على ذلك، أن النص القرآني لا يذكر من نشاط ذي القرنين في رحلته هذه الثانية إلا أن القوم كانوا مكشوفين للشمس، ويبدو أن هذه كانت مشكلتهم فجاء ذو القرنين يعينهم للتغلب عليها، كما أعان القوم الآخرين في بناء السد ليدرأ عنهم خطر يأجوج ومأجوج. وأيًّا كان الأمر، فهما مشهدان متقابلان: مشهد الفتية في الكهف الساتر الواقي، ومشهد القوم في أرض مكشوفة لا ستر فيها من الشمس ولا وقاية. والعنصر المشترك بين المشهدين هو الشمس وحركتها في الحالتين.

وعلى هذا العنصر المشترك يقوم التلاحم اللغوي المتفرد بينهما. فمادة «طلع» من المواد القليلة الورود في القرآن فلا تظهر فيه إلا تسع عشرة مرة بصيغها المختلفة. ويتميز ورودها في سورة الكهف بِسِمَتَيْنِ ليستا في أي سورة أخرى في القرآن: الأولى أن الفعل الثلاثي طَلَعَ، يطْلُعُ لا يظهر إلا في سورة الكهف مُسْنَدًا إلى الشمس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾ [الكهف: 17]، وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ [الكهف: 90]. والثانية أن «الْمَغْرب» عادةً يقابله «الْمَشْرِق» في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]. أما في هذه السورة فيقابله «الْمَطْلِع». ففي رحلة ذي القرنين الأولى، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86]. وفي رحلته الثانية، قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ [الكهف: 90] – ولم يقل «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَشْرِقَ الشَّمْسِ» كما هو متوقع – تنسيقًا للتناظر والتلاحم بين قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. ومما ينبغي ذكره بهذه المناسبة، أنَّ النظم القرآني كثيرًا ما يعيد استعمال كلمة بعينها في السياق نفسه وعلى مسافات متقاربة. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18]. فقد استعمل كلمة ﴿اطَّلَعْتَ﴾ المشتقة من «طَلَعَ» للتنسيق بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾ [الكهف: 17]، ولم يقل «لو رأيتهم»، لا لأن «رأيت» لا تقوم مقام «اطَّلَعْتَ» في تناسقها اللفظي فحسب، ولكن لأنها لا تقوم مقامها كذلك في مدلولها اللغوي. ومثل هذا كثيرٌ جدًّا في القرآن لا يتسع المقام لتفصيله هنا.

* * *

المثال الثامن عشر: {مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91]. هاتان الآيتان تقعان في قصتين مختلفتين، وموقعين متباعدين، ولكنهما تتلاحمان بكلمتين لا تجتمعان في آية واحدة في القرآن كله إلا فيهما، وهما «أحاط» و«خُبْرًا». فالفعل «أحاط» يتكرر في

القرآن سبع عشرة مرة فقط، ويقع في سورة الكهف أربع مرات، وهذا أعلى نسبة ظهور له في القرآن. ويُستعمل في القرآن إما مقترنًا بالعلم، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، وإما مفيدًا لمعنى العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: 22]. وفي سورة الكهف يأتي مفيدًا لمعنى العذاب مرتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]، وقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: 42]. ويأتي مقترنًا بالعلم مرتين في الآيتين اللتين بين أيدينا، غير أن استعماله فيهما يتفرد بسمة ليست في غيرهما في القرآن. وهي أن التمييز المعتاد لهذا الفعل هو كلمة «عِلْمًا»، أما في الكهف فيختار السياق كلمة «خُبْرًا» في الموضعين، وهذه الكلمة لا ترِد في القرآن كله إلا في هذه السورة.

ففي الآية الأولى يقول العبد الصالح لموسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68]، كيف تصبر على أمر لا تستطيع أن تنفُذ من مظهره إلى مخبره؟ قال: ﴿خُبْرًا﴾، ولم يقل «عِلْمًا» ليفيد معنى الخبرة، أي أن يَخْبُرَ الإنسان حقائق الأشياء الكامنة وراء ظواهرها عن تجربة.[41] وذلك أن موسى ﷺ كان يعلم كل الأشياء التي مرت به في رحلته مع العبد الصالح ولكنه لم يكن يدرك مغزاها البعيد. فقد أُلْقِيَ في اليم وهو صغير فنُجِّيَ من الغرق، وقَتَل الرجلَ المصري فنجَّاه اللهُ من الغم، وسقَى الماءَ للمرأتين بلا أجر. ومع ذلك، فلما أعيدت عليه هذه الأحداثُ نفسُها كتجربةٍ عمليةٍ جديدةٍ يقوم بها غيرُه لم يستطع الصبر عليها، فبادَرَ بإنكارها، لأنه لم يَخْبُرها، ولم يستطع النفاذَ إلى أعماقها، ومن ثم كان اختيار «خُبْرًا» هو الأنسب لأنَّ الخبرةَ عِلْمٌ وزيادة.

وفي الآية الثانية يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91]. فالله سبحانه قد أحاط بما لدى ذي القرنين خُبْرًا، وهو ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3]، وهو الذي مكَّن له في الأرض، وآتاه كلَّ أسباب القوة، ويعلم آثار فعله في الخلق حين يعاقب الظالمين، ويثيب الصالحين في رحلته الأولى، أو حين يؤوي المكشوفين في رحلته الثانية، أو حين يدرأ فساد المفسدين في رحلته الثالثة. فهو لا يتصرف إلا وفق ما تقتضيه هذه الإحاطة الخبيرة من الله العليم الخبير. ومن ثم كان تصدير الآية بكلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التي يؤتى بها غالبًا في القرآن للنص على سنةٍ من سنن الله الجارية.[42] وكذلك، فإن الله – سبحانه – هو الذي علَّم العبد الصالح من لَدُنْهُ علمًا، وأرسله إلى موسى ليعلمه آثار الأشياء ومآلاتها من وراء ظواهرها.

وبهذا تلتحم الآيتان، وهما قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، وتتشابك القصتان، كما يتحد مصدر التلقي لكلٍّ من العبد الصالح وذي القرنين، وهو الله سبحانه. وسنرى في المثال التالي كيف يتحد مصدر التلقي لكلٍّ من العبد الصالح ونبينا محمدٍ ﷺ.

---

41 يقول ابن منظور في **لسان العرب**: «وخَبَرْتُ الأمرَ أخبُرُهُ إذا عرفتَهُ على حقيقته». انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة «خَبَرَ»، 1090. سبق ذكره.

42 وقد احتار المفسرون في معنى هذه الكلمة وحاولوا تفسيرها باستعمال ما لديهم من الأدوات النحوية والبلاغية، وهي أدوات كليلة تعجز كل العجز عن تفسير مثل هذه التعبيرات القرآنية الخاصة.

* * *

المثال التاسع عشر: {مِنْهُ ذِكْرًا}

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 70]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]. هاتان الآيتان تقعان في قصتين مختلفتين، ولكن يجمع بينهما تركيب لغوي متفرد لا يظهر في القرآن كله إلا فيهما، وهو قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ذِكْرًا﴾. إنَّ هذا التركيب يتكون من عبارة ﴿مِنْهُ﴾، وكلمة ﴿ذِكْرًا﴾، وهاتان كلمتان شائعتان في القرآن. فعبارة «منه» - كما هي بضمير الغائب المفرد - تتكرر أكثر من ثمانين مرة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: 110]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: 19]. وكلمة «ذِكْر» بصيغتها الاسمية هذه تتكرر ستًّا وسبعين مرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: 99]. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: 87].

ومع هذه الكثرة الشائعة لهاتين الكلمتين، فإنّ تركيب ﴿مِنْهُ ذِكْرًا﴾ الذي يتألف منهما لا يقع إلا في هاتين الآيتين من سورة الكهف ليكون آصرة لغوية متفردة تجمع بين قصة موسى وقصة ذي القرنين. ولكن التعبير القرآني لا يكتفي بهذه الآصرة اللغوية وحدها على تفردها، وعلى حسمها في الربط بين الآيتين، وإنما يستعمل في الآيتين كلمة واحدة تشترك بينهما، كأنما يتتبع ما قد يهجس في الخاطر من أن عبارة ﴿مِنْهُ ذِكْرًا﴾ هذه إنما جيء بها في ختام الآية بطريقة آليَّة لتكون فاصلةً للآيتين. وهذه الكلمة المشتركة هي «سأل». جاء في الآية الأولى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾، وفي الثانية ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾. ويأتي استعمال الفعل «سأل» في الآيتين وفق ما يقتضيه سياق كل آية من غير أدنى تكلف، كما يأتي اختتام الآيتين بالفاصلة نفسها دون أدنى تكلف كذلك. فكل كلمة تأتي في موقعها موافقة لِمَا يقتضيه السياق. ولو لم نَعْقِدْ هذه المقارنة بين الآيتين لَمَا شعر القارئ بما تكرر فيهما من العبارات أصلًا، ولَمَا رأى فيهما إلا سبْكًا أصيلًا مستقلًّا لا علاقة له بما جاء في سياق قصة أخرى. هذا كله من الناحية اللفظية.

فلننظر الآن إلى الناحية الغرضية. في الآية الأولى، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 70]. إن المتحدث في هذه الآية هو العبد الصالح يأذن لموسى أن يتبعه، ولكن بشرط ألا يسأله عن تصرفاته، وأن يصبر حتى يتولى هو شرحها له، ويقدم له تفسيرها ومغزاها البعيد. والرجل يعلم أن ظاهر أفعاله ستكون صادمة لموسى وستثير اعتراضاته واحتجاجاته. فهو يعلم هذا بما علمه الله من لدنه علمًا. ومن هنا كانت ثقته بما يقول، ومن هنا كان ما يبدو في لهجته من صرامة المعلم الواثق من علمه، المتيقن مما سيكون. ونلاحظ أنه لا يقول: «حتى أُفَسِّرَ لَكَ» أو «حتى أُبيِّنَ لَكَ» أو غير ذلك من العبارات التي تؤدي معنى الشرح والتفسير، وإنما يقول: ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾؛ وذلك لأن الهدف هو «إحداث الذكر»

لموسى حتى يتذكر ما مرَّ به في حياته من تلك الأحداث التي تعاد عليه هنا كتجربةٍ جديدةٍ يقوم بها غيره. ومن ثَمَّ كان اختيار هذا التعبير الدقيق، تعبير إحداث الذكر، وهو تعبير قرآني ورد كذلك بصيغة أخرى في سورة طه عند التعقيب على قصة موسى في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113].

وفي الآية الثانية، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]. إن الخطاب في هذه الآية صادر من الله – سبحانه – إلى نبيه محمدٍ ﷺ يخبره فيه أن الناس يسألونه عن ذي القرنين، ويوجهه أن يقول لهم: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، أتلو عليكم من أنبائه ما يكون ذكرًا لكم، يوجِّهكم إلى الخير، ويدفعكم إلى الاقتداء بسيرة الرجل الصالح الذي آتاه الله من كل شيء سببًا فأحسن استعماله في نفع الخلق، ونشر العدل، وحماية المستضعفين. فلذلك يسوق القرآن لقطات من سيرته يكون فيها ذكر للناس وعبرة. فكلُّ لقطةٍ مختصرةٌ لا توسعَ فيها، ولا تفصيل، وإنما تركز على المبادئ العامة التي ينتهجها الرجل في سيرته مع الناس، وتعرض بعضَ الأعمال التي يقوم بها ترجمةً لتلك المبادئ في صورة عملية تؤثر في حياة الناس. لقد أوحى الله إلى نبيه محمدٍ ﷺ خبر ذي القرنين ليكون فيه ذكر للناس، كما علَّم العبد الصالح من لدنه علمًا، وأجرى على يديه تلك الأحداث لتكون ذكرًا لموسى ﷺ وللناس من بعده. فمصدر هذا الذكر هو الله سبحانه. وللتأكيد على وحدانية هذا المصدر كان التوحيد بين العبارتين، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

* * *

المثال العشرون: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا...}

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: 61]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93]. مرة أخرى نجد أنفسنا أمام آيتين تنتميان إلى قصتين مختلفتين، ولكن تتلاحمان بورود كلمتين فيهما لا تجتمعان في القرآن كله إلا فيهما. فالكلمتان هما الفعل «بَلَغَ» وكلمة «بَيْن». ففي الآية الأولى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، وفي الثانية، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾. فالفعل الثلاثي «بَلَغَ» يتكرر في القرآن أربعين مرة، وأكثر ظهوره في سورة الكهف إذْ يقع فيها سبع مرات، وحصرًا في قصة موسى وقصة ذي القرنين. وكلمة «بَيْنَ» تتكرر مائتين وستًّا وستين مرة. وهذا الشيوع يُقَوِّي فرصةَ اجتماع الكلمتين في تركيب لغوي واحد. ومع ذلك، فإنهما لا تجتمعان في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة الكهف، مما يدل على أنهما مصممتان لتكونا من الأواصر اللغوية المتفردة التي تلتحم بها قصة موسى بقصة ذي القرنين على النحو الذي مرَّ بنا من الأمثلة.

وقد اقتضى استعمالَ هاتين اللفظتين سياقُ كلٍّ من القصتين. إنَّ كلًّا من موسى وذي القرنين كانا على سفر، وبلوغ نهاية السفر غاية كلِّ مسافر. لذلك كان استعمال الفعل «بَلَغَ» مما يقتضيه السياق، ومما تقتضيه طبيعة

النشاط الذي يزاوله الرجلان. فموسى ﷺ كان في رحلة يبحث فيها عن العبد الصالح، وقد أعلن عن عزمه على الْمُضيِّ حقُبًا حتى يعثر عليه عند مجْمِعِ البحرين: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [الكهف: 60]. وكذلك ذو القرنين كان في رحلاته يجوب مشارق الأرض ومغاربها، وينتهي فيها إلى غايات معينة. فقد انتهى في رحلته الأولى إلى مغرب الشمس: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ**﴾ [الكهف: 86]. وفي رحلته الثانية إلى مطلع الشمس: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**﴾ [الكهف: 90]. وفي رحلته الثالثة إلى ما بين السدَّيْن: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ**﴾ [الكهف: 93]. أما الذي اقتضى استعمال كلمة «بَيْنَ»، فهو أن رحلة موسى كانت غايتها البلوغ إلى مجْمَعِ البحرين، وأن رحلة ذي القرنين الثالثة انتهت بالبلوغ إلى ما بين السدين، وكلتا الغايتين فيها تَثْنِيَةٌ تقتضي استعمال كلمة «بَيْنَ». إذن فكل كلمةٍ أصابت موقعها إصابة تامة، وجيء بها لتأدية معنى لا يتم إلا بها.

ففي مقابل هذا التناظر اللغوي، نلحظ تلاقيًا غرضيًّا بين الآيتين. فموسى يلتقي بالرجل الصالح عند مجمَع البحرين فيبلغ بذلك غايته التي خرج من أجلها، وتبدأ من ثم رحلته الحافلة بالمفاجآت. وذو القرنين يلتقي في المكان الذي بين السدَّين بالقوم الذين أراد الله له أن يُعِينَهم، ويدفعَ عنهم خطر يأجوج، فيَبْنِيَ لهم السد، ويُكْمِلَ رسالتَه، ويَبْلُغَ من رحلته الثالثة ما أراد.

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة من سورة الكهف، ولم نستقص كل ما فيها من عناصر التلاحم اللغوي. ففيما عرضنا منها ما يكفي للدلالة على أن أجزاء السورة متلاحمة في بنائها اللغوي واتجاهها المعنوي تلاحمًا محكمًا يقطع بأنها من مصدرٍ واحدٍ لا من مصادر متعددة، كما يزعم المبطلون. والآن نقول كلمة موجزة نختم بها هذا الفصل.

* * *

خاتمة

من هذه الأمثلة العشرين التي حللناها من سورة الكهف تبرز جملة من النتائج:

النتيجة الأولى أن أجزاء سورة الكهف بمقدمتها، وقصصها، وما تخلل تلك القصص من المواعظ ومشاهد القيامة لُحْمَةٌ واحدةٌ تحمل طابع التصميم الرباني المعجز الذي تتشابك فيه الألفاظ والتراكيب والأغراض تشابكًا يستحيل أن ينتج مثله عقلٌ بشري مهما بلغ من الدقة والذكاء.

والنتيجة الثانية أنَّ القصص الثلاث التي يزعم المستشرقون أن القرآن استمدها من أساطير الأولين يظهر فيها من ضروب التلاحم اللغوي المكثف ما يقطع بأنها لو كانت مستمدة من مصادر شتى لَمَا تلاحمت هذا التلاحم المعجز الفريد. ويكفي أن نستعيد من الأمثلة التي ضربناها المثال الذي في هذه الآية: ﴿**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ [الكهف: 10]. لقد جاء في هذه الآية من المفردات والتراكيب ما يتقاطع مع القصص الثلاث تقاطعًا متفردًا لا نظير له في القرآن. فهي من الغِنَى بالأواصر اللغوية بحيث إن كل كلمة فيها يعاد استعمالها في مواضع أخرى في السورة، وتكاد تقتصر تلك المواضع على القصص الثلاث. وإن هذه القصص الثلاث هي التي يثير المستشرقون حولها الشبهات، ويزعمون أنها مأخوذة من مصادر أسطورية. فالنظم القرآني يرد على زعمهم هذا الباطل بآية واحدة ضمَّنها أواصر لغوية متفردة تربط بين تلك القصص جميعًا، وينسف ما يأفكون.

والنتيجة الثالثة أن كل قصة من القصص الأربع الرئيسية في السورة وحدة سردية مستقلة لها بداية ولها نهاية، نستطيع أن نقرأ كل واحدة منها ونفهمها بمعزل عن الأخرى. ولكنها مع هذا الاستقلال السردي الواضح تتلاحم في بنائها اللغوي واتجاهها المعنوي كأنها ليست مستقلة ذلك الاستقلال الْمُبِين. وهنا يكمن الإعجاز. إنه يكمن في بروز هذا التشابك اللغوي والمعنوي من حيث لا يُنتظر، من بيئةٍ سرديَّةٍ يَسُودُها الاستقلال والانفصال. ومن أهم مظاهر هذا التشابك ما نراه في اقتباس أبطال القصص بعضهم من بعضٍ كلماتٍ وعباراتٍ تلائم طبيعة الحوار الذي يدور في كل موقف. فذو القرنين – مثلًا – يقتبس كلماته من الفتية الصالحين حين يُفْصِحُ عن منهجه في التعامل مع الصالحين، بينما يقتبس كلماته من صاحب الجنتين الظالم لنفسه حين يكشف عن منهجه في التعامل مع الظالمين. بمثل هذا التناظر المعجز، تتشابك القصص التي هي في الأصل وحداتٌ سرديَّةٌ مستقلة.

والنتيجة الرابعة أنه في ظل هذا التشابك المدهش لهذه القصص يبدو قول المستشرقين بتشتت السورة قولًا منكرًا لا سند له من النص القرآني، ولا من المخطوطات التي يعتمدون عليها في إثارة هذه الشبهة. وأهم مخطوطة يستندون إليها للطعن في قصة أصحاب الكهف في القرآن هي المخطوطة السِّريانيَّة المحفوظة في الفاتيكان تحت هذا الاسم: Vatican Syriac MS 115، والتي تُنسب إلى راهب اسمه يعقوب السروجي

(451 – 521م تقريبًا)، الذي قضى معظم حياته يؤلف المواعظ الدينية. ويرجع تاريخ هذه المخطوطة في تقدير علماء المخطوطات إلى القرن السابع أو الثامن الميلادي؛ أي بعد وفاة يعقوب السروجي بقرن أو قرنين أو أكثر،[43] الأمر الذي يجعل إثبات نسبتها إليه على وجه اليقين أمرًا مستحيلًا، فضلًا على أنها تفتح بابًا للتساؤل حول احتمال تعرضها للتحريف خلال تلك الفترة الممتدة. والعجيب في أمر هذه المخطوطة أن كاتبها لا يشير فيها إلى أن القصة أسطورة، وإنما الباحثون المعاصرون هم الذين يصرون على تسميتها أسطورة إذْ لو كان الكاتب يعتقد أنها أسطورة لما ساقها مساق الموعظة. هذا أولًا. ثانيًا أن القصة تُنْطِقُ الفتيةَ عند استيقاظهم من نومهم بحديثٍ عن عقيدة التثليث المسيحية التي لم يكن لها وجود في الزمن الذي ناموا فيه، وهو عهد الإمبراطور ديسيوس (Decius) الذي حكم في الفترة ما بين عامي 249م و251م. كما أنه لم يرِدْ ذكر صريح لعقيدة التثليث في العهد الجديد، والتي لم تبرز بصورتها التي في تلك المخطوطة إلا بعد أزمنةٍ من التشكل مرت بها، ابتداءً من مجمع نيقية الذي عُقد عام 325م، والذي قرر أن الآب والابن من طبيعة واحدة.

والنتيجة الخامسة والأخيرة أنّ المستشرقين يزعمون أن هذه القصة بما فيها من عقيدة التثليث كانت متداولة باللغة العربية شفاهةً بين نصارى العرب في مكة في عصر التنزيل، وأن النبي ﷺ تلقاها منهم وأدخلها في القرآن. ويبدو فعلًا أنّ القصة كانت معروفة لدى المخاطبين بالقرآن في عصر التنزيل، والقرآن نفسه يشير إلى ذلك بوضوح، حين يذكر اختلاف الناس في عدد الفتية، مما يدل على أنهم كانوا يعرفونها. بل إنّ بداية القصة ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾ [الكهف: 9] تدل على أنّ النبي ﷺ كان على علم بالقصّة، والخطاب الموجّه إليه في هذه الآية يؤكد أنه سمع بها، وأنه كان يراها آية عجيبة من آيات الله. ولكن هذا كله لا يضر القرآن في شيء؛ لأنّ الإعجاز في حقيقته إنما يكمن في صياغة هذه القصة المعروفة تلك الصياغة المعقدة المتشابكة التي تتداخل فيها القصص المختلفة في السورة في ألفاظها وفي أغراضها ذلك التداخل المدهش المتفرد العجيب، والذي لا يقدر على مثله عقل بشري مهما بلغ من الدقة والذكاء. كما يكمن الإعجاز في أنّ الله سبحانه قصَّ على الناس نبأَ الفتية بالحق: ﴿**نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف: 60]، وجَلَا ما أحاط بهم من شبهات الشرك، وما حِيكَ حولهم من الأساطير. والحمد لله رب العالمين.

43 See Sidney Griffith, "Christian lore and the Arabic Qur'ān: the "Companions of the Cave" in Sūrat al-Kahf and in Syriac Christian tradition" in *The Qur'ān in Its Historical Context*, ed. Gabriel Said Reynolds (New York: Routledge, 2008), 120ff.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث